الرواية الفلسطينية
إلى أين...؟

إبراهيم خليل

الرواية الفلسطينية

إلى أين؟

د. إبراهيم خليل

الرواية الفلسطينية

إلى أين؟

دراسة في روايات مختارة

الطبعة الأولى

2026

• الرواية الفلسطينية.. إلى أين؟

دراسة في روايات مختارة

• د. إبراهيم محمود إبراهيم خليل

• الطبعة الأولى 2026

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/11/6663)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: الرواية الفلسطينية .. إلى أين؟
تأليف	: خليل، إبراهيم محمود إبراهيم
بيانات النشر	: عمان: إبراهيم محمود إبراهيم خليل، 2026
الوصف المادي	: 184 صفحة
رقم التصنيف	: 813.90564
الواصفات:	: / النقد الأدبي/ / الروايات العربية/ / التحليل الأدبي/ / فلسطين/
الطبعة	: الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• (ردمك): ISBN 978-9923-9536-1-7

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

الفهرس

المقدمة	7
طقوس المنفى لإلياس أنيس خوري	9
في الشوك والقرنفل: السنوار روائي يهتم بالتوثيق	17
باسم خندقجي ولعبة الأقنعة	29
آخر القلاع: رواية مونولوجية لرائدة الطويل	39
عابرو حريق: القيادات التقليدية وإشكالية الهوية	51
فاروق وادي :عصفور الشمس وتوظيف الحكاية	61
مجانين بيت لحم: عرض حال يفتقر لشروط الرواية	69
ليلى الأطرش في لا تشبه ذاتها والبحث عن أفق	75
مشاة لا يعبرون الطريق لعاطف أبو سيف	83
الخيمة البيضاء لليانة بدر: رواية تقول ما لا يقال	89
رام الله الشقراء لعباد يحيى: رواية تراسلية ساخرة	97
حمامة كولمبيا لهرون هاشم رشيد: تجربة متعثرة	103
تفاحة العابد لجهاد أبو حشيش ومآل المناضل السابق	109
في امرأة خارج الزمن: غموض في المكان والزمان	119
رشاد أبو شاور يكتب سيرته في وداعا يا ذكرين	127
أبو شاور يواصل سيرته في الحب وليالي البوم	135
حياة حصار لفيصل حوراني وإشكالية التجنيس	145
عربة قديمة بستائر لغسان زقطان: رواية أم سيرة؟	155
أحمد حرب والصعود إلى المئذنة	163

أصل وفصل: رواية شبه تاريخية 171
خاتمة الكتاب 179
للمؤلف 181

مقدمة الكتاب

تتنوع اهتمامات الروائي الفلسطيني كغيره من الروائيين العرب إلا أن الموضوع السياسي، والسؤال الذي يجبه الكاتب هو: فلسطين وماذا بعد؟ ففي طقوس المنفى - مثلا - لإلياس أنيس خوري استعادة شبه وثائقية لمجريات النكبة 48 تنتهي بشيء من التطلع لكيان فلسطيني مقاوم، أو شبه مقاوم، أعلن عنه ذات يوم. وفي "الشوك والقرنفل" ليحيى السنوار شبه توثيق لما جرى في فلسطين عامةً، وقطاع غزة خاصة، بُعيد عام 1967 في شيء من التركيز على الجانب الثوري في القطاع إبان انتفاضة كانون الأول – ديسمبر 1987 وفي "قناع بلون السماء" للأسير المحرَّر باسم خندقجي تختلط إشكالية الهوية مع التشبث بالحق التاريخي عن طريق السؤال من هي المجدلية؟ ومن هو نور؟ في حبكة توصف لدى بعضهم بلعبة مسلية تسمى لعبة الأقنعة.

ومن تقلبات الوضع الداخلي إلى الوضع في المنفى. والمجازر في مخيمات صبرا وشاتيلا، والتشبُّث بالحياة، وبالمكان الذي تعبر عنه رواية آخر القلاع لرائدة الطويل؛ باستخدام المونولوج، وضمير المخاطب، لا المتكلم، فيما يشبه الكثير من البوح. مثلما نجد في روايتها " عابرو حريق" تسليط الضوء على قيادات تقليدية فاسدة، وتخاريف شعبية سائدة تتضارب مع سؤال الهوية.

ويُفضل بعض الروائيين البحث عن أفق آخر أكثر شمولا وتحررًا من سؤال النكبة المباشر. وهذا ما نجده في رواية "لا تشبه ذاتها" للكاتبة ليلى الأطرش، وفي "عصفور الشمس" لفاروق وادي، وهي رواية لا تخلو من توظيف لحكاية شعبيةٍ ما. ورواية "مجانين بيت لحم" التي تذكرنا بالمستوى الهشّ للرواية، فلسطينية كانت

أم غير فلسطينية، لافتقارها لقواعد التنْصيصِ الروائي، وهو ما تفتقر إليه رواية رام الله الشقراء لعباد يحيى، و"حمامة كولمبيا" لهرون هاشم رشيد.

ومن الروائيين من يُؤْثر كتابة الرواية بوصفها شيئا لا يختلف قطعا عن السيرة. وهذا ما يقترب بها من التاريخ. ذلك لأن حظها في هذه الحال من التخييل حظ قليل، وضئيل، على الرغم من إضافة الكاتب إلى الواقع بعض التمويه، فيبدو طاغيا على سرده لسيرته الذاتية، ولكتابة قصة حياته بقلمه. وذلك ما نجده واضحا في روايات منها: "وداعا يا ذكرين" لرشاد أبو شاور، و" الحب وليالي البوم" للكاتب نفسه، و"حياة حصار" لفيصل حوراني، التي رصد لنا فيها يوميات الحرب في لبنان وبيروت عام 1982. ونجد هذا النمط سافرًا في رواية "عربة قديمة بستائر" لغسان زقطان.

في المقابل، ثمة روايات تشير إلى ما انتهت به، وآلت إليه، اتفاقية أوسلو 1993 بما فيها من بروتوكولات وملاحق. فقد تبين بعد مفاوضات عبثية تجاوزت الثلاثين عامًا، والممارسات الفاسدة للسلطة، أمنيًا، واقتصاديا، وسياسيا، أنه اتفاق – مثلما يصفه أحدهم- أسْوأ لفلسطين وقضيَّتها من وعد بلفور المشؤوم. نجد هذا لافتا في رواية "الخيمة البيضاء" لليانة بدر التي تقول عن هذه الأوضاع ما لم تقله رواية أخرى. فضلا عن إشاراتٍ مقتضبة لكنها قوية تكاد تفصح عن هذا في رواية جهاد أبو حشيش "تفاحة العابد" . فأحد شخوص الرواية يرى في أوسلو ثمرة متوقعة لما كان ينخر ثورة يناير 65 من فساد، فهو لم يأت من فراغ.

وهذه الروايات التي يجري الحديث عنها في هذا الكتاب تُعدّ عينة تمثل فيضًا من الأعمال التي يصعب تناولها جميعا في كتاب، إلا إذا فَضَّل المؤلف الرؤية الأفقية الواسعة على الرأسية التي تتيح لنا التعمُّق في قراءة الرواية من حيثُ هي نصٌ مستقلٌ عن غيره، مكتملٌ بذاته.

المؤلف

طقوس المنفى للياس أنيس خوري
تاريخ لمن لاتاريخ لهم

تعتمد رواية إلياس انيس خوري طقوس المنفى(عمان: 1994) على حكاية، أو حكايات، بكلمة أدق، جرت أحداثها في أحد المخيمات الواقعة بين القدس ورام الله. وقد يكون مخيم الأمعري، إلا أن المؤلف لم يذكر اسمه. بيد أن ثمة إشارات وردت لقربه من المدينتين، ولكون اللاجئين المقيمين فيه معظمهم من اللد والرملة.

وقد حشد الكاتب لهذه الغاية عددا من الشخصيات غير قليل، مانحا كل شخصية منها ما تستحقه من التحليل الذي يُسبغ عليها نمطا يجعلها مختلفة عن سائر الشخصيات الأخرى. فسميّة- التي تظهر في بداية الرواية طفلة جريئة تتصرف تصرف الصبيان- لا يفتأ الراوي، أو المؤلف الضمني، يروي لنا حكايتها مع زوج أمها أبو كرش، وعلاقتها بالراوي بعد أن كَبُرا قليلا، وتجاوزا المراهقة، وترددا إلى سينما العودة، وشاهدا فيلما لفاتن حمامة وعمر الشريف. ثم إنها بُعيد أن ظهرت عليها علامات (الحَمْل) أو ما يشبه الحَمْل، اختفت هي وأمها، ولم يعد الرواي إلى ذكرهما مطلقًا، وإن توقف عند أحوال (أبو كرش) الذي بقي وحيدًا بلا مُعين.

ولا يفتأ الرواي (المشارك) يوحي لنا بسيرورة الزمن، فقد بلغ السابعة، وآن الأوان ليذهب لإحدى مدارس وكالة الغوث التي يديرها الأستاذ صلاح. وهو مدرس يساري، أو شبه يساري إذا شئنا الدقة. وفيها المدرّس عبد المجيد الذي ينطبق عليه المثل الشعبي " كمن يحمل السلّم بالعرض". تعبيرًا عن تطرّفه، وموقفه

غير الودود من (مُعين) رئيس إدارة المخيم، ووَصْفي شاويش المخفر، والمختار صلاح أبو عودة. وأما أبو جهاد، فهو والد الراوي، ولديه هو الآخر مشكلاتُه مع المذكورين، ومع آخرين ممن لا يؤيدون عبد الناصر، ولا الأحزاب السياسيّة من بعثية، وشيوعية، وغيرهما ممن ينادون بضرورة الحصول على السلاح لمجابهة الإسرائيليين، واستعادة البلاد.

فهو يردّ على زوجته التي تنْصحُ بتأجيل إرسال الولد للمدرسة، قائلا: إنه بلغ السابعة، وعليه أن يلتحق بمدرسة. فاليهود هزمونا لأنهم تسلحوا بالعلم، ونحنُ يجب أن نتفوَّق عليهم كي نستردَّ البلاد.

الطفل ساردًا

والياس خوري انتقى في روايته هذه ساردًا مشاركًا كان عند وقوع الحوادث المحكيّة طفلا، وبعد دخوله المدرسة احتفظتْ ذاكرته بالمزيد من الأخبار التي اختزنها طويلا إلى أنْ حان الوقتُ المناسبُ لاستعادتها في هذه الرواية. لذا يحاول الاستعانة بذاكرة الطفل التي تحتفِظ بكلِّ صغيرة وكبيرة، واصفًا أجواءَ المخيم وصفًا يجعل القارئ كأنه يتنقَّلُ في أزقته، ودروبه، وحاراته، ولا سيما حارة حطّين. وسوق الخميس. والمسجد بإمامه الشيخ حمودة. وأم مازن بسلاطة لسانها المسموعة لدى الغادي، والرائح، من جوار المنزل الذي تقيم فيه. وأبو الفتوح الغزّاوي الذي لا يفتأ يطالب بتأليف جيش تحرير. ولا يفوته أنْ يسلط الضوءَ على شخصيّة (أزْعَط) وهو الأبله المشهور بهذا اللقب، ولا يحبّ شيئا قدر محبته للقدس [1].

أما عماد، فهو معلم مدْرَسة، فصَلَتْه الوكالة من الوظيفة لجرأته، ومجاهرته بالاقتراب من قوى المعارضة من قوميّين، وشيوعيين [2]. بعد أنْ فقد عمله غادر إلى سورية، وأقام فيها إلى أن وقع الانقلابُ الذي أطاح بوَحْدتها مع مصر.

1.الياس خوري، طقوس المنفى، ط1، عمان: الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، 1994،ص25

2.المصدر السابق، ص 45

بعدها غادر للكويت. وعندما عاد إلى المخيم أبَتْ الوكالة توظيفه من جديد، فاضْطُرّ لبيع الكُتُب على عربة بدولابَيْن اثنين، إلا أنَّ أحدًا لم يشتر منه كتابا واحدًا. في موازاة ذلك، كان (مُعين) رئيس إدارة المخيم، يطمع في إقامة علاقة بزوجة عماد(أم ناصر) التي صدَّته مرارًا، وتكرارًا. وظلّ عمادٌ هذا يعاني من ضيق الحال، ومن التردُّد إلى السجن بين حينٍ وآخر، حتى فكّر بالانضمام لجيش أنشأه عبد القادر المعيني لتحرير فلسطين. وعندما أُحْبِطَتْ محاولات المعيني هذا غادر المخيم، وَوَجد عملا في السعودية لا يذكر لنا الراوي طبيعته، ودأب على تزويد أمّ ناصر ببعض المال، إلى أنْ انقطعت عنها أخباره[1].

البعد الإيديولوجي

ولأنَّ السارد في هذه الرواية يستعيد، ويتذكّر، ما جرى إبّان طفولته، فقد روى كيف جمعوا من تلاميذ المدارس التبرعات دعما لثورة الجزائر. [2] مشيرًا إلى التظاهرات الطلابية التي خرجت تنديدًا بالعدوان الثلاثي على مصر 1956 والتصدي لسياسة الأحْلاف؛ كحلف بغداد، وغيره[3]. واستقبال أهالي المخيم وفدًا أمريكيًا يضمُّ نوّابا، وشيوخًا من الكونغرس، غايتُهم من الزيارة تقصّي الحقائق. وقد تباينَت المواقفُ من هذا الوفد؛ فالمختار، والشاويش، وقائد المخفر اقترحوا ترميم المخيم، وتنظيفه، وتزيينه بالأضواء، واللافتات. وفريقٌ آخر رأى في هذا تزييفًا يُعْطي الوفد إنطباعًا مغايرًا للواقع، وطالبوا ببقاء المخيم على ما هو عليه، ليبصرَ أعضاءُ الوفد الوضْعَ الرثّ للاجئين، كي ينقلوا هذا لحكومتهم، إنْ كانوا صادقين. [4] وفي هذا السياق برزَت المشاحناتُ، والتبايُنات الإيديولوجيّة في المخيم.

1.خوري، طقوس المنفى، ص52

2.المصدر السابق،ص 57

3. السابق، ص 59

4.السابق،ص 73.

عبد المجيد

فعلى الرغم من أنّ المدرّس عبد المجيد يتكرّر ظهورهُ في سياق الأحداث بصفته معارضًا يساريًا، ومتحمّسًا، لا يتوقّف عن ذكر التحرير، والعودة، إلا أنَّ الكاتبَ لم يُسنِدْ إليه ما يكفي ليحتلَّ موقع البطل في الرواية. مع ذلك نجد فصلا كاملا يوردُ فيه الراوي المزيد من التفاصيل عنه؛ كوفاة والده وهو صغير، وتعهّد أبي رأفت، وهو خاله، لتربيته، وتعليمه، ليكون شيوعيًا مثله [1]. إلا أنّ الفتى نشأ ميّالا للفكر القومي، كارهًا موقف الشيوعيين التصالحُي مع الكيان الصهيوني. فوجد في حزب البعث تيارًا ينتمي له وينتسب. وعندما أتمَّ الثانوية بعثَ به الحزبُ إلى دمشق لدراسة الحقوق. وفي الأثناء اكتشَفَ أنّ هذا الحزب لا يفي بما يَعِد به، ولا يعمل بشعاراته الثورية. ونشرَ مقالاتٍ تنتقدُ الحزب مما عرَّضه لضغوطٍ انتهت بطرده من دمشق قبل أنْ يُتمَّ الدراسة [2]. وما هي إلا أسابيع مرَّت بعد رجوعه للمخيّم حتى فوجئَ الجميعُ بانقلاب أمين الحافظ، ومأمون الكزْبَري، الذي أطاح بالوحدة في شباط - فبراير 1962، وكان لهذا وقعُ الكارثة لدى أهالي المخيم الذين أُحْبِطتْ آمالهم بالتحرير، والعَوْدة. [3]

المراوحةُ في الزمن

وينْهج الراوي في "طقوس المنفى" نهْجَ المراوحة في الزمن time shifting بدلا من التَسَلْسُل chronicle. فحرصًا منهُ على رواية ما جرى في المخيم، يعود بنا للوراء إلى سنة 1955 عندما اجتاحتْهُ الكوليرا، وتوفيت الصغيرة نورا وفاةً خلّفت في نفوس ذويها جرحًا غائرًا لا يلتئم[4].

1.خوري، طقوس المنفى، ص 78

2.المصدر السابق،ص 79

3.المصدر السابق،ص 83

4.السابق، ص 88

ومن باب الحرص على تمام الصورة، يقفُ بنا إزاء شخصية (أبو مازن) عبد الودود الشفا عمري- نسبة لبلدة شفا عمرو- وزوجته سليطة اللسان. وما يُروى عنهما من نوادر، وطرائف تُضْفي على السرد شيئا من الدعابة(ص92- 93) فهو صاحبُ نظريّة في قضية فلسطين يسميها النظرية الصِراعيّة. ولديه ولعٌ باقتناء الكتُب، ويرتدي بين حين وآخر مُسوحَ الفلاسفة، ظانًا أنه لا يختلفُ عن أرسطو، ولا أفلاطون. وحظيت سيارة المختار (الفورد) القديمة ببعض الاهتمام، إذْ يتذكّر الراوي كيف كان الصغار، وهو منهم، يتحلّقون حولها مُنْدهشين، ولا يفوتُهم أن يتذكّروا مزاعم المختار عن أنّ هذه السيارة ستُقلُّه إلى اللدّ عند تحريرها في العاجل القريب.

الحاضرُ والماضي

وعلى هذا النسق يواصل الراوي ترتيب مروياته، فإما أن يعود بنا للماضي، أو يتوقّف عند الحوادث الجارية في الزمن الذي يُطلق فيه العنان لذاكرته. فأبو كرش، الذي سبقت الإشارة إليه، يتعرّض لاعتداء سافر. وربما كان هذا الاعتداء بدوافع سياسية، مثلما يرى (معين) رئيس المخيم، وشاويش المخفر. وبدلا من أن يتتبّع السارد ما يترتب على ذلك الاعتداء الوحشي، يعود بنا للوراء، أي إلى الوقت الذي وفَدَ فيه الرجل إلى المخيم، وروايته المشكوك فيها عن بلائه الحسَن في معركة أمّ الفحم، ونضالاته التي أسفرَتْ عن وقوعه أسيرًا بيد الإنجليز الذين أرادوا إعدامه، ووضعوا كيسًا من الخيْش على رأسه، والتفَّ الحبلُ حول عنقه، وتأرجَح لحظةً، لكنَّ عقدة الحبل سرعان ما انقطعت، وارتطم جسمُه بالأرض. وادّعى في حكايتهِ هذه أنّ المجاهدين هاجموا المعسكر، وأصابت الأعيرة النارية عقدة الحبل فانقطع،

1.خوري، طقوس المنفى، ص ص 92 – 93

ولولا ذلك لاحتُسِبَ شهيدًا . وهذه الرواية كغيرها لا تعدو كونها- في رأي كثيرين - إحدى أكاذيبه الجمّة. فأبو كرش، في رأيهم، لا يمكن إلا أنْ يكون قاتلا، أو زعيم عصابة من قطاع الطرق التي عاثت في البلاد فسادًا[1] . وهو في رأي آخرين مخبرٌ متطوعٌ لا يتلقّى أجرًا على خدَماتِه كغيره من المخبرين[2].

دجاجة منتوفة الريش

وعلى عادة الكتّاب الذين يُفضّلون المزج بين الدعابة، وخفّة الروح، والترفيه على القارئ، يعود بنا الكاتب لشخصية الأبله (أزْعَط) الذي سبَق ذكره. فبعد اختفائه مدة تقرُب من الشهر، عاد للمخيم بروح جديدة. تدلُّ على هذه الروح الحال التي عرضت له ذات صباح فانقلب إلى ثائر عصبيّ المزاج يخاطب الأهالي " يا سَفَلة.. يا عكاريت.. الموت لليهود.. الموت للعملاء والخونة.. هاتوا السلاح وهيا لنحرر فلسطين.. يقول هذا وعيناهُ تقْدحان شَرَرًا ". [3] وهذه الحال، التي عرضت لهذا الأبله، جعلت إدارة المخيم؛ من رئيس، وشاويش، ومختار، يعتقدون أنه مدفوع بدوافع سياسية. واليساريون من شيوعيين، وناصريّين، وراءَها، واعتُقل أزْعطُ، وعوقبَ عقابا شديدًا، لكنه خرج أخيرًا من الحبْس مثل " دحاجةٍ منتوفة الريش "على رأي السارد.

عرسٌ ومُشاجرة

وحرْصُ المؤلف في " طقوس المنفى " على رصد الحياة اليومية في المخيم رصدًا لا يدع صغيرة، ولا كبيرة، جعلتْ منه كاتبا لا يُعنى بما تضيفه محكياته لحبكة الرواية من إضافات. ومن هذا القبيل ما وقَفَنا فيه على الحوادث التي أسفر عنها عرْسُ ابنة المختار (سعدية) وزفافها على السعودي (أبو غضبان) الذي انتهى بمشاجرة حامية

1.خوري، الياس، طقوس المنفى، ص 115

2.المصدر السابق، ص 116

3.السابق، ص 123

الوطيس، تطايرت فيها الكراسي، والأطباق، وشُدِخَتْ رؤوس، وأريقت دماءٌ ما كان لها أن تراق. واعتُقل أشخاصٌ كثيرون بعد فرض الطوارئ، واتُخذتْ مدرسة المخيم سجنًا مؤقّتا نظرًا لعدَد المعتقلين الكبير. واختفى الأستاذ عبد المجيد، وأُعْلِنَ عن مكافأة مالية لمن يُدلي بمعلومات تُفضي للقبض عليه حيثما كان. وقيل: إنه بعد المشاجرة فرَّ إلى سورية [1]. أما السبب المباشر لذلك الشِجار، فهو إيديولوجي، لأنَّ أحدهم، ممن يؤيدون عبد الناصر، ردَّ على ما يشاع من اقتراح لجون كندي يفضي إلى حل القضية الفلسطينية بمنح اللاجئين تعويضًا[2]. وقد أثنى المختار على هذا، مما أدى لتلاسُن، وتراشُق، انتهى بذلك العنف الذي لم يخطر ببال. وفي هذا السياق فوجئ القومُ بخبر اغتيال كندي(22 نوفمبر 1963) الذي حمّل الشيخُ حمودة الصهاينةَ مسؤوليّةَ اغتياله؛ لأنه كان جادًا في حلّ القضية حلّا في غير صالحهم. ومثلما قيل في حكاية (أبو كرْش) وعبد الودود الشفا عمري، يمكن تكرار القول في حكاية آدم الحيفاوي. الذي اشترى ببطاقة اليانصيب بطْحَةَ عرَق، وبعد أيام اكتشفَ فوْزها بمبلَغ كبير، فتذكر المثل" المثْعوس مَثْعوس ولوْ وضعوا على راسُه فانوس" [3] .

الوطني الفلسطيني

عندما بدأ الكيان الصهيوني تنْفيذ مشروعه لتحويل نهر الأردن، وتجفيف بحيرة الحولة، عُقِدَ أوّل مؤتمر قمة عربي في القاهرة في 13 يناير كانون الثاني 64. ومن قرارات ذلك المؤتمر ضرورةُ ابتعاث كيان تنظيمي يكون ممثلا لشعب فلسطين. وتبعًا لذلك ينْبغي عقدُ مؤتمر وطني للتشاوُر في طبيعة هذا الكيان المقترح. وكاتب هذه

1.طقوس المنفى، ص 144

2. طقوس المنفى، ص 140

3. طقوس المنفى، ص 149

الرواية يختَتِمُ روايته " طقوس المنفى " بما يُروى من محكيات عن هذا المؤتمر، وما سبقه من إعداد اتصف بكثرة الآراء، والخلافات، بين قادة المخيم الإداريّين من جهة، والوُجهاء، من جهةٍ أخرى. وقد شاءت الصدف أنْ يُعقد هذا المؤتمر في دار للسينما. ألقيَت فيه الخطبُ النارية، وأطلقَتْ شعاراتٌ حماسيّة، وتمخَّضتْ قراراتُه عن ظهور ما عرف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وتأسيس جيشٍ باسم جيش التحرير الفلسطيني، تكون قواعده، ومعسكراته، في دول المجابهة. وتُسهم في تدريبه، وتمويله، الدول المضيفة، لكنَّ المؤلفَ لم يذكر إلا القليل من نتائج هذا عن المؤتمر، تاركا للقارئ أنْ يستوفيَ ما لم يُذكر. ولكنه، كعادته، يتطرَّق لتفاؤل الشخوص بهذا الحدث. فأبو جهاد، وهو والد الراوي، جمع مفاتيح البيت الذي غادرهُ في قرية (العَتَبَة) وشرع في تنظيفها مما علق بها من صدأ، استعدادًا للعودة. وذكر لابنه حكاية المفاتيح، والبيوت، التي تُركت في البلاد، وما لديه من قِصَصٍ عن المفتاح الذي صُنع من 100 عام. وعاصرَ حملة نابليون على مصر، وظهور محمد علي. ولكن هذا التفاؤل الذي نجح في تبديد الكآبة إلى حين لم يكن أكثر من سَراب.

كلمة أخيرة

وقد يتساءَلُ القارئ، بعدَ هذا العرض لمجرياتِ الحكاية، ونهج الكاتب الضمني في توليفها، هل تتضمّن طقوس المنفى حكاية لها بدايةٌ، وتنطوي على عقدةٍ، وتنتهي بخاتمةٍ، كغيرها من الروايات. إذا عدنا لما ذكره الراحل أحمد دحبور في المقدمة من أنّ فصول الرواية تمثل عملية تراكمية مدروسة، اضْطرَرْنا للاختلاف معه. فالفصول بعضُها مترابط وبعضها لا ضرورة لوجوده، إلا إذا كانت الغاية هي تصوير الحياة اليومية في المخيم، بما فيها من مُجْريات، بعضها ذو علاقة بالرواية، وبعضها يُسْتحسن استبعاده. وهذا شيءٌ يُخلُّ بمتْن الحكاية، ويجعل منها طائفة من المجريات التي لا تؤلّف حكايةً متماسكةً. وهذا هو الشرط الذي لا غنى عنه لأيّ كِتابٍ يُنْشر تحْت مُسمّى " رواية ".

في الشوك والقرنفل

السنوار روائي يوثق الوقائع

قلة نادرة من الناس هي التي تعرف أن ليحيى السنوار رواية كتبها في الأسر قبيل عام 2004 ونشرت وهو فيه. والرواية بعنوان «الشوك والقرنفل» ومع أن العنوان يجمع بين الشوك، بما يوحي به من ألم وأذى، والقرنفل الذي يوحي بخلاف ذلك، إلا أنه مناسب. فهو يذكرنا بوقائع تتطلب تذراف الدموع، وبأخرى أقل تتطلب البسمة والابتهاج على طريقة الراحل جبران خليل جبران في كتابه «دمعة وابتسامة» مع الفارق الكبير بين المؤلفين. وفي مقدمةٍ من بضع عبارات يؤكد السنوار أن هذه الرواية ليست شخصية، وشخصية، في آن، فهي بتركيزها على الأوضاع في غزة والقطاع وفي مخيم الشاطئ تحديدا، ثم في الخليل، والقدس، وسائر الأراضي الفلسطينية، ما احتل منها عام 48 أو عام 67 تغدو سيرة غير ذاتية. علاوة على أن ما يذكره من الشخصي، والذاتي، يكاد يناظر ما يذكره من العام، مما يطبع الرواية بطابع غير روائي، فهي سيرة، أو شِهادة، بقناع شبه روائي.

وهي لا تقتصر على قصة حياة الكاتب بقلمه، بل هي قصة حياة العائلة، والشعب الذي ينتسبان له؛ العائلة وهو. وفي هذا تكمن روعة هذه الرواية. فبطل الحكاية، وساردها (أحمد) غير منعزل عن الآخرين، بل يتحدث بصوت منفرد، لكنه بصيغة الجمع، على رأي أدونيس في «مفرد يصيغة الجمع".

حرب العام67

لا يذكر من طفولته * التي تقدمت على أحداث عام 1967 إلا القليل الذي لا يُطفئ ظمأ القارئ. فقد كان وهو صغير يرافق أخاه محمودا وابن عمه إبراهيم إلى معسكر المصريين فيلتقيان بالجنود الذين يأنسون بهم ويقدمون لهم قِطَعًا من حلوى الفستقية. وما هي إلا مدة قصيرة حتى لاحظ هو وأخوه محمود تغييرًا في المشهد اليومي، فقد منعا من الخروج، وطلب منهما، ومن أختهما فاطمة، ومن حسن أيضا، الانكفاء على أنفسهم في الملجأ الذي أعده والدهم في حوش الدار في المخيم.[1] وكلما حاول أحدهم الخروج زُجر، وقيل له: إنها الحرب، ما بتفهموا شو الحرب؟ بُعيد ذلك يتذكر وقوع القطاع تحت الاحتلال، ويتذكر أن المذياع عندما يُفتح يسمع منه صوت المعلق أحمد سعيد. يروي في هذا الموقع من الحكاية شيئا طريفا فقد تقدمت الدبابات باتجاه المخيم، وهي ترفع الأعلام المصرية، فهُرِعَ بعضُ الناس لاستقبالها، ظنا منهم أنه المَدَدَ جاء من مصر. ليفاجأوا بالنيران تحصدهم حصدًا، ثم ترفع الأعلام الإسرائيلية بدلا من الأعلام المصرية. وكان عدد الذين قتلوا في تلك اللحظة يربو على خمسة عشر ** .

وقد تبين بُعَيد أيام أن عمّ السارد محمود (أبو إبراهيم) قد استشهد، أما والده فعُدَّ من المفقودين. ويذكر لاحقا، في الأجزاء الأخيرة من السيرة، أن والده كان قد غادر القطاع مع من غادروه إلى مصر التي غادرها إلى الأردن، وأقام في مخيم البقعة، وتزوج لاحقا من فلسطينية أنجبت له ابنين: ماجدًا وخالدا [2]. ويذكر أن أحد لاجئي مخيم الشاطئ، أبو يوسف، استشهد بعد الحرب بسنة في عمليه فدائية ضدّ المحتلين. ويرصد التحـولات في المخيم بعد الاحتلال رصدًا فيه الكثير

1.السنوار، يحيى، الشوك والقرنفل، د.ن، غزة، 2004 ص 4

2.الشوك والقرنفل، ص ص 274- 275

من التوثيق، والتدقيق. ويتتبع ما جرى من وقائع لبعض شخوص العائلة كزواج فتحية ابنة خاله من عبد الفتاح أحد أبناء صوريف بمحافظة الخليل. وهذا الحدث يرتبط بوقائع أخرى.[1] ويركز على أحد النشطاء، وهو أبو شرار، الذي انتشر ذكره بصفته ممن أطاروا النوم من عيون الإسرائيليين. ونشطت في العام 68 خلايا تابعة لفتح، وأخرى للجبهة الشعبية، وبعض من تبقوا من قوات جيش التحرير الفلسطيني، والانتصار الذي تحقق في معركة الكرامة في آذار 68 شحذ الهمم، ورأى فيه المناضلون دليلا على أنّ التغلب على العدوّ ليس مستحيلا[2] بل هو أسهلُ مما كانوا يتصورون.

ولم يفُتْ السارد أن يذكر ما شاع من أن ضراوة المقاومة دفعت بالاحتلال لفتح الطريق أمام الشبان ليلتحقوا بالعمل في (إسرائيل) ومُنحت لهم التصاريح بسخاء[3]. ورأى بعض الناشطين في ذلك مؤامرة، وعدّوها وسيلة لصرف الشبان عن النضال. وبعضهم عدها خيانة، وجريمة، في حق الوطن. وبشيء من الاستغراب يروي أمثلة متعددة لنسف العدو منازل بعض الناشطين، ومساعدة وكالة الغوث التي تمثلت ببناء مساكن جديدة [4]. ولما كان السارد قد بلغ السادسة، وتقرر انضمامه للمتعلمين في مدرسة الوكالة، فقد حصل على بطاقة تسمح له بالحصول على وجبة غداء كغيره من الطلاب على الرغم من أن أمه نهته عن هذا، وأما أخوه محمود فقد نجح في الثانوية، وغادر إلى مصر ملتحقا بكلية الهندسة.

كان لعمه الشهيد محمود ابنان: إبراهيم، وحسن، وهذا الأخير شذَّ عن أفراد

1.الشوك والقرنفل، ص 36، 46

2. المصدر السابق،ص ص 38- 39

3.المصدر السابق، ص 48

4.المصدر السابق، ص 54

الأسرة، وغلب عليه الطيش. فهو يتحرش بابنة الجيران تارة. وتارة يقيم في تل أبيب، ويعاشر صديقة يهودية، وطورًا يصبح عميلا للإسرائيليين، مما دعاهم لطرده[1] . وفي نهاية الحكاية يختفي. واختفاؤه أوقعهم في مأزق مع المخبرين. ويهتم السارد بواحد من الجيران اسمه عبد الحفيظ الذي تظاهر بالعمل وراء الخط الأخضر، لكنه اتخذ من ذلك طريقة للتمويه فهو من الجبهة الشعبية، فكان يصطحب معه قنبلة يخفيها في رغيف الخبز، ويتركها في مطعم أو مقهى أو ملهى، فتنفجر بعد مغادرته موقعهُ إصابات، وأحيانا قتلى. واعتقل في إحدى هذه العمليات، وسجن 18 شهرًا. لاحقا تبين أن أخا السارد (محمود) نُظّم في فتح، وهو في القاهرة. وعند رجوعه من مصر اسْتُدعيَ للتحقيق. في هذه الأثناء تداول الغزيون الأحاديث عن أصحاب الطواقي الحُمْر، أو الوحدة 101 التي أنشأها شارون لتعقب الناشطين[2]. وازداد الاستيطان، والتدخل في الحرم الإبراهيمي، ولم تفلح وساطة الجعبري في كبح هذه التدخُّلات، فاستولى المستوطنون على الحرم الإبراهيمي في الخليل، واقتصر السماح للمسلمين بأداء صلاة الجمعة فيه دون غيرها من الصلوات.

تفاءل السارد، وغيرهُ، بالحرب التي اندلعت بين مصر وسورية من جهة، و(إسرائيل) من جهة ثانية في 6 أكتوبر1973، وفرحوا كثيرا بما تحقق من انتصارات بادئ الأمر، وراودت الكثيرين منهم الأحلام بالعودة. إلا أن التطورات التي تبعت تلك الحرب أحبطت الأمال، وخيبت الأنظار. فاشتد عود المقاومة. وشهدت سجون العدو الكثير من الإضرابات التي امتدت لأسابيع، وحقق المعتقلون بعض المكاسب [3].

1.الشوك والقرنفل، ص 59، و95

2.الشوك والقرنفل، ص 75

3.الشوك والقرنفل، ص 88

ولم يلبث أن غزا الفكر السياسي الأراضي المحتلة في القطاع، وفي الضفَّة الغربية، على السواء. فعلى ذمة السارد برزت التياراتُ الآتية:

1. قوات التحرير الشعبية وهي لينينية
2. فتح بطرْحها الوَطني الخالص
3. الجبهة الشعبية ذات التوجّه الماركسي

ووجد الساردُ نفسه إلى جانب أخيه محمود الفَتْحَوي، وجاره عبد الحفيظ ابن أم العبد من الجبهة الشعبية، وابن عمه وأخيه حسن؛ اللذين يميلان للشيخ أحمد (يُظنُّ أنه الشيخ أحمد ياسين1936- 2004) [1] مما يدعو محمود لتحذيرهما من (الإخونجية). ومهما يكن الأمر، فإن حسن، وإبراهيم، في جدالهما مع المهندس محمود، الذي عثر على وظيفة في الوكالة، تمكنا من اجتذاب الراوي (أحمد) فشرع يذهب للصلاة في المسجد، والاستماع لدروس الشيخ أحمد، وتركيزه على ضرورة الإعداد، والتحضير، لتحرير البلاد، والعباد. لكن مواظبته على الصلاة لم تكن دائمة، ولا مستمرة. ومما استنكرهُ تحفُّظ الشيخ أحمد على تصنيف من يُقتل في سبيل الوطن شهيدًا. فالشهيدُ عنده هو الذي يقاتل، ويُقْتل، في سبيل الله فحسب. وقد تجاوبت هذه الأفكار مع أفكار جديدة تطرح لدى طلبة كلية الشريعة في الخليل، فهم يولون الحافز الديني الأولوية على الوطني، مثلما يؤكد عبد الرحمن، زوج فتحية ابنة خال السارد [2]. وبفتح جامعة الأزهر الإسلامية بغزة، ازدادت هذه الفكرة شيوعًا. ويذكر السارد جمعية الشبان المسلمين، وجمعية المجتمع الإسلامي، وهاتان الجمعيتان شرعتا في ترويج هذا الفكر[3].

1.الشوك والقرنفل،ص 93

2. الشوك والقرنفل، ص 104

3.الشوك والقرنفل، ص 113

ويشير السنوار لشخصيتين هما: عبد الرحمن، وصديقه جمال، وهما طالبان جامعيان في كلية الشريعة في الأردنية، حسما أمرهما وانضما لجماعة الإخوان. وأما شقيق الراوي(محمد) فقد التحق بجامعة بير زيت. في تلك الفترة ازداد الاستيطان، وقامَ متطرفون يهود بحملة اغتيالات استهدفت بعض الوطنيين. كان إبراهيم، ابن عم أحمد، من أوائل من التحقوا بالجامعة الإسلامية في غزة، وللتغلّب على نفقات الدراسة اضطر للعمل في وُرَش البناء. وفي ص 130 يذكر لنا السارد أنه شارك إبراهيم في رحلة ترفيهية مع عدد من الناشطين للأماكن السياحية في فلسطين. وفيها تعرَّف على الكثير من المواقع الأثرية، والتاريخية. وفي مقدمتها الأقصى، والحرم الإبراهيمي، واللطرون[1] . وفي الأشهر الأولى من التحاقه بالجامعة جرت اشتباكات بين التيار الإسلامي وفتح التي اتهمت الإسلاميين بتمزيق صورة عرفات. وفي موازاة ذلك شاع التوتر في لبنان، وقام الإسرائيليون بغزْوه، واضطرت المقاومة لمغادرة لبنان. وصُدم الكثيرون بالأخبار الواردة من مخيمي صبرا وشاتيلا. وها هنا يذكر الكثير من العمليات التي قام بها فدائيون في المستوطنات، وفي الداخل الفلسطيني أسفرت عن مصرع الكثير من الإسرائيليين، جنودًا ومدنيين.

وتبلورت قيادة الأسرة بُعيْد اعتصام نحو 60 طالبا من طلاب الجامعة في الأقصى، مسلحين بمواسير حديدية مما يستخدم في البناء لصدّ المتطرفين اليهود ممن كانوا يعتزمون انتهاك حرمة أولى القبلتين. فمحمود (المهندس) أخو الراوي يمثل تيار فتح، و محمد وحسن يمثلان التيار الإسلامي، بينما يمثل عبد الحفيظ- ابن أم العبد - الجبهة الشعبية بتوجُّهها الماركسي. [2]

1.الشوك والقرنفل، ص ص130- 134

2.الشوك والقنفل، ص 149

أما ابن عم السارد(حسن) الذي ورد ذكره قبلا، فيمثل العملاء، والجواسيس، مثلما يمثل « الزعران « [1].

في الفصل السابع عشر يومئ الكاتبُ لما يُعَدُّ خروجًا عن السياق بذكره ما وقع فيه السارد(أحمد) من إعجاب بفتاة من طالبات الشريعة، واسمها انتصار[2]. و كان قد أشار إلى شيء من هذا لأخيه محمد قبلا، وهذه الإشارات وردت في فيض من التسجيل شبه الدقيق لما جرى من صِدامات، ولما شنه الاحتلال من حملات اعتقال. فقد احتجز إبراهيم- ابن عمه - مع 100 طالب وعوقبوا بالضرب المبرح. ومرت غزة وما جاورها في حقبة من الانفلات الأمني، فكان الإسرائيليون يهيمنون عليها نهارًا، ولا يجرؤون على دخولها ليلًا. و غدا بيت الأسرة في مخيم الشاطئ كغيره من البيوت عرضة للاقتحام مرارا وفي أوقات متقاربة لا متباعدة. وزُج بإبراهيم في زنزانة كغيره. ويكتشف بعيد خروجه أن أحد أصدقائه(فايز) عميلٌ للاحتلال، فراقبه أحمد يومًا، ورآه يحضر مع المخبر (أبو وديع) ويغادر معه بسيارة.

ولا يفتأ الراوي يذكر العمليات الفدائية واحدةً تلوَ الأخرى، في سردٍ شبه صحفي، توثيقي. وبلغ بنا ذِكْر الحادثة التي أدَّت إلى إشعال الانتفاضة في 8 ديسمبر -كانون الأول- من العام 1987 وفي يوم 11 من الشهر نفسه صدر أول بيان باسم «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس) وفي هذه الانتفاضة توخّى النشطاءُ الجواسيسَ، وترصَّدوهم، وجرت معاقبة، أو تصفية، عدد منهم. ويُذكـَرُ أن ممن جرت تصفيتهم أحد المشرفين الإداريين في مستشفى الشفاء[3]. ويلمّ إلماما غير سريع بـ (معتقل الخيام) في النقب.

1.الشوك والقرنفل، ص ص143-156

2.الشوك والقرنفل، ص 168

3.الشوك والقرنفل، ص 2014

ويكرر الحديث عن اعتقال إبراهيم وحسن ومحمود. ويتوالى سرد العمليات كالسابق. إلا أن الكاتب يشير لطرائق جديدة في مقاومة الاحتلال كالدهس والطعن بالسكاكين وتفجير عبوات محلية الصنع، ولا يكفّ عن تكرار هذه العمليات واحدة بعد الأخرى. وقد جُنَّ جنون رابين – رئيس حكومة الاحتلال - فنشر الجنود والمخبرين في البلاد طولا وعرضا. وتقرر إبعاد نحو 415 معظمهم من حماس إلى مرج الزهور في الجنوب اللبناني، منهم أخو السارد حسن [1].

غزة – أريحا أولا :

لم ترحّب الأكثرية باتفاق أوسلو الذي وقع في سبتمبر أيلول من العام 1993 بعد مفاوضاتٍ شهدت الكثير من المقالب. ففيما يؤيد محمود هذا الاتفاق على قاعدة خذ وطالب، عارضه كل من إبراهيم ومحمد وحسن، وإلى حد ما السارد أحمد. وفي الأثناء انطلقت من الجامعة مظاهرتان؛ إحداهما ترفع أغصان الزيتون، في إشارة لتأييد الاتفاق، والثانية تهتف: «غزة أريحا فضيحة، طلعت منها الريحة». [2] وبموجب هذا الاتفاق عاد بعض المنخرطين في المنظمات منهم ماجد، وخالد، شقيقا السارد من أبيه الذي توفي في الأردن. وترتبت على قدومهما صدمة عانت منها أم السارد التي شُبّه ما اعتراها بنوبات من الهستيريا[3]. وزاد الطين بلةٍ استشهاد أحد أبطال المقاومة (عماد). وعلى الرغم من ذلك كله لم تهدأ المناكفات بسبب أوسلو. ولم تخفِّفها العمليات الكبيرة، ومنها عملية ديزنكوف(1996) في تل أبيب، ولا تلك العملية التي قتل فدائيون فيها عضو الكنيست مئير كهانا، ولا تفجير حافلة كبرى بحزام ناسف في رامات غان يوم 21 تموز من العام 1995 ولا تلك العملية الأكبر في رامات أشكول.

1.الشوك والقرنفل، ص 245

2.الشوك والقرنفل، ص 271

3.الشوك والقرنفل،ص 275

وفقد الفلسطينيون كافة - من يؤيد منهم اتفاق أوسلو، ومن لا يؤيده - ثقتهم بهذا الاتفاق، بعد الفشل الذريع الذي منيت به مفاوضات واي ريفَرْ(تشرين الثاني 1998) ورأى الجميع أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. ونشط الناشطون.. وذاع صيت المقاوم محمد أبو حلاوة الذي قتل حارسين لبنك إسرائيل الوطني في القدس. ولا بد أن الإسرائيليين توصّلوا بعد لَأْيٍ لحقيقة أن أبناء فلسطين عامة، وغزة على وجه الخصوص، أشاوس، ويصعب إذلالهم. ويختتم المؤلف روايته باستشهاد ابن عمه إبراهيم، وشقيقه حسن، فيمن استُشهدوا، عند الانتهاء من وقائع هذه السيرة – الرواية.

بين السرد التاريخي والروائي:

من هذا العرض لأبرز وقائع مخيم الشاطيء بغزة، وعلى هامشه وقائع ما جرى في الخليل، والقدس، وبعض نواحي الضفة الغربية، ومرْج الزهور في لبنان، في الحقبة الممتدة من العام 1967 حتى العام 2000 تبرز الحقيقة القائلة بأن الرواية قد تكون في بعض الأحايين تاريخًا غير زائف، لا سيما إذا حافظ الكاتب، ومن ورائه الراوي، على نزعة التوثيق، والتدقيق، فيما يرويه، مع اللجوء، من حين لآخر، لدعم محكياته السردية ببعض القرائن التي تؤكد صدق (المحكي السردي) وخلوه من التخييل الافتراضي. ومثلما اتَّضح - في هذه العُجالة - لا فكرة لدى المؤلف عن" كيف تكتب الرواية " وإنما الفكرة التي تراءت له أن الرواية وقائع، وأحداث، تروى بالتسلسل على النحو الذي عاشه الناس، لا على النحو الذي يتطلبه قانون الفن الأدبي.

فلم يخطر ببال الكاتب- مثلا - أنه يكتب رواية تحتاج لمزيد من التصرف بالأحداث. فاختصار ما لا يتطلبه الإسهاب في روايته، أو حذف ما لا داعي لذكره، أو إسقاط ما يُضفي الرتابة، والتكرار، على بعض المرويات، أو تقديم ما من حقه التأخير على مستوى الزمن السردي، أو العكس؛ بتأخير ما من حقه

التقديم. أو العناية بتوضيح ملامح الشخوص من جوانبها المتعددة، وتجنب العشوائية في ظهور الشخصيات من حين لآخر، هذا كله لم يتذكر المؤلف ضرورته لتكتسب مروياته في (الشوك والقرنفل) مِسْحة شعرية. واللافت للنظر افتقارُ «الشوك والقرنفل» للحبكة التي تعنى تضمين الخطاب الروائي عقدةً تستحوذ على انتباه القارئ الذي ينشأ لديه بسببها إحساسٌ بالتشويق، ورغبة في معرفة نهاية الأحداث المتشابكة، أي: ما يسمى عادة بالتَرَقُّب، وهو شعور يُفرّقُ بين تلقي الروايةِ الرواية، وتلقي أي ضربٍ آخر من ضروب السرد غير الروائي.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ السِنْوار، وهو قيادي، ومُقاوم، وأسير، أمضى في الاعتقال سنين قبل تحريره في صفقة تبادل أسرى[1]، لا يحتلُّ الأدب الروائي إلا حيزًا محدودًا من اهتماماته. لذا لا غُبار على هذه الشهادة التي كتبت فيما يشبه الرواية نَسْجًا، والسيرة غرضا وموضوعا ونهجًا، ومزيّتُها التي تسلب العقل هي ما فيها من محكيات مُفصلَّة عن عمليات فدائية محكمة انتهت في معظم الأحوال بالتغلب على الجنود الاحتلاليين، أو باستشهاد بعض المناضلين. وهي إفادات يصعُب أن نجد ما يحيط بها في غير هذا الكتاب، مع أنّ أيَّ عملية من تلك العمليات تصلح أن تكون وحدها موضوعًا لروايةٍ يكتُبها متخصِّصٌ بهذا الفن. وكل مناضل ممن ذَكروا في هاتيك العمليات يستحق أن يكون نموذجا تنسج حوله، وعنه، روايةٌ مكتملةٌ يكتبُها حاذقٌ في صنعة الرواية، متمكنٌ من صياغةِ خطابِ الحكاية.

ومن الجدير بالذكر أن الأدب الفلسطيني عامة، والرواية خاصة، لا تخرج عن هذا الإطـار الذي أصبح شبه متفق عليه لدى الكتاب من ظهور روايـــة

1.استشهد في 16 أكتوبر 2024 وهو يقاتل في قطاع غزة

الوارث عام 1920 لخليل بيدس إلى اليوم، نستثني من هذا رواية أصل وفصل لسحر خليفة2009 فقد خرجت عن هذا الإجماع. إذ عمدت فيها لتشويه الصورة الباهرة لجهاد شعب فلسطين، وأظهرت بعض أبناء العائلات النابلسية العريقة في صورة الخوَن المتعاملين مع العدو، كتعاون رشيد مع إسحق شالوم في تهريب الأسلحة للعصابات الإجرامية التي هدفها ترويع الفلسطينيين[1].

ومن يقرأ الرواية يلاحظ وجود رؤية خاصة بالمؤلفة تميل بها نحو تفضيل المرأة الإسرائيلية على العربية، فالأولى متحضرة، والثانية من الهمج. وتشهد بعض الشخصيات فيها للإسرائيليين بالتفوق في الزراعة، وتخلف الفلاحين الفلسطينيين. والأدهى من هذا والأمر أنها لا تعترض على الاستيطان، بل تضفي عليه الطابع الحضاري التقدمي، وتصف المسؤول عن تهجير الفلسطينيين بالحنيّة وطيبة القلب. عدا عن هذا كله أساءت- فيما يرى أحد الدارسين*** - لثورتين هما ثورة الشيخ عز الدين القسام الذي وَصفَتْ أتباعه باللصوص، وقاطعي الطرق، وثورة 1936التي عنيت بها آن ماري جاسر في فلم روائي طويل فاز بجائزة الأوسكار عام 2025.

1.خليفة، سحر، أصل وفصل، ط1، بيروت: دار الآداب، 2009، ص 176

*ذكر في الرواية أنه من مواليد العام 1962 في مخيم الشاطئ، وأن أسرته من الفالوجة، وكانت قد لجأت لقطاع غزة 1948.

** تذكرني هذه الحكاية بموقف مشابه فقد احتلت قريتنا(عاتين) عام 1967 بالطريقة ذاتها. فالآليات الإسرائيلية كانت ترفع أعلاما عراقية، وعندما شاهدتها النساء استقبلنها بالزغاريد، فوقع ما وقع، وتبين أن الآليات إسرائيلية، وأن الجند إسرائيليون.

***رضوان، عبدالله، ملاحظات على رواية أصل وفصل لسحر خليفة، الدستور، ع 25 أكتوبر 2013. وكنت قد ذكرت هذه الملاحظ عليها في مقالتي المنشورة بالرأي ع 2010/4/16 وانظر ص 171 من هذا الكتاب.

باسم خندقجي في
قناع بلون السماء

بعد ديوانين أصدرهما باسم خندقجي وهو في السجن : "طقوس المرّة الأولى" الدار العربية للعلوم "ناشرون" والثاني: "أنفاس قصيدة ليلية" الذي قدم له الإعلامي زاهي وهبي، وصدر عن دار النشر المذكورة ببيروت، أصدر أربع روايات هي "مسك الكفاية"، ورواية "خسوف بدر الدين"، ورواية "نرجس العزلة" ورواية "أنفاس امرأة مخذولة" وهذه الرواية " قناع بلون السماء " هي روايته الخامسة. وفيما نُشر عن هذه الرواية من مقالات يتضح أن من تداولوها لا يعرفون إلا القليل عن الكاتب، واسمه باسم محمد صالح أديب خندقجي، وقد ولد في الثاني والعشرين من كانون الأول عام 1983 في مدينة نابلس. بدأ دراسته في مدرسة المعرّي الابتدائية، التي تقع في الجبل الشمالي. وأتم الثانوية العامة في مدرسة الملك طلال الواقعة على الطريق بين نابلس ورفيديا قرب المتنزه البلدي، والتحق بجامعة النجاح الوطنية - دراسة خاصة – تخصُّص العلوم السياسية، ثم تحول عنه إلى قسم الصحافة والإعلام.

طلائع اليسار

تأثّر خندقجي بمشهد الطفلة إيمان حجو ابنة الأشهر الأربعة التي قتلتها قذيفة دبابة إسرائيلية في حضن والدتها في قطاع غزة في 7 أيار 2001، فأنشأ فصيلا جديدا باسم طلائع اليساريين الأحرار، ضم عددا من الشبان المتحمسين للمقاومة والكفاح المسلح، فاعتُقل في الثاني من تشرين الثاني عام 2004 على يد قوات الاحتلال بعد عملية سوق الكرمل، التي نفذها الشهيد عامر عبد الله من كتائب

الشهيد أبو علي مصطفى في الأول من تشرين الثاني من العام نفسه، واتُهم خندقجي بالضلوع فيها كونه أحد أعضاء المجموعة التي خططت للعملية، فحُكم عليه بالسجن المؤبد ثلاثا. والرواية التي جعلت منه كاتبا مشهورًا بين عشية وضحاها كتبها وهو في سجن (جَلْبوع) التي تقع إلى الشمال من مدينة جنين، وهذا السجن من أخطر المعتقلات. والمعروف أن عددا من المعتقلين تمكنوا من الهروب منه في حادثة ظلت موضع اهتمام الإعلام لمدة غير قصيرة. وقد فرغ من كتابتها في تشرين الثاني نوفمبر من العام 2021 أي في تلك الأيام التي تفشى فيها فايروس كورونا.

سيف القدس

وهذا العام (2021) هو العام الذي اندلعت فيه معركة سيف القدس في مايو(أيار) نتيجة الاعتداءات على منازل المواطنين في حي الشيخ جراح، ومسيرة الأعلام الاستفزازية التي قام بها غلاة المتطرفين، فقد أشار الكاتب إلى هذا إشارة صريحة فيما ذكره عن عصرية الثلاثاء 11 أيار (مايو) 2021 منبّهًا على ما أسفرت عنه تهديدات المقاومة من تعليق لمهمة فريق التدريب الأثري الخاص بالتنقيب عن آثار، أو حفريات، للكشف عن بقايا الفيلق الروماني السادس، وتأجيلها إلى إشعار آخر بسبب الأوضاع الأمنية المتوترة[1].

مريم المجدلية

لا يُخفي الكاتب خندقجي ما يعتزمه في هذه الرواية، وهو كتابة رواية تاريخية عن مريم المجدلية، وقد نحلها - إذا جاز التعبير وساغ- للمؤلف الضمني نسيم شاكر. وهذا المؤلف اطلع على روايات أخرى سبق لمؤلفيها أن اقتربوا من هذه السيدة؛ كدان براون Brown صاحب الرواية المعروفة شيفرة دافنشي، والياس خوري مؤلف رواية أولاد الغيتو، وروايات، ونصوص أدبية، وإنجيليـة، أخرى أشار لها

1.خندقجي، باسم: قناع بلون السماء، ط2، بيروت: دار الآداب، 2023 ، ص 224

الكاتب خندقجي مرارًا، في سعي من نسيم شاكر لتقديم فكرة جديدة تنقح المعلومات المتداولة عن المجدلية التي غلب عليها هذا اللقب، لكونها من بلدة مجْدَلة، وهي بلدة فلسطينية ذكرت في المصادر القديمة التي تعود إلى نحو 10 آلاف سنة قبل الميلاد.

ولأن الآراء، والمرويات، في هذه المرأة، اختلفت كثيرًا، وتباينت تباينا أكبر؛ بين من يعدُّها زانية، ومن يعدها قديسة ربانية، وأن المسيح، أو يسوع، تزوج منها أو لا، وأنها أقرب إلى طبيعة الرُسُل، وعلاقتها بسمعان الأعرج. وما تكرر من روايات متباينة عنها في الأناجيل مرقس، وبطرس، ولوقا، وغير ذلك من أناجيل، فقد عمَد لدراسة الآثار، والاتجاه لمعرفة الحقيقة المتعلقة بها عن طريق الحفريات، لا عن طريق الحكايات المتضاربة، ولا الأخبار المنقولة، صادقة كانت أم كاذبة، على الرغم من أن تلك الأخبار تكاد تجمع على صلة مجدلية بيسوع، وبالمسيحية، أو على الأقلّ ببعض مذاهبها السائدة.

صُدْفة في معطف

وفيما كان نور- البطل الذي ابتكره نسيم، واتخذه قناعا ساردًا- يتجول في سوق للخردة بيافا، جذب نظرهُ، واسترعاه معطف بين الملابس المستعملة فاستهواه، وارتداه، فألفاه على مقاسه تمامًا، وكأنه فُصّل له تفصيلا، فاشتراه من البائع. وفيما هو يتيه به، ويتفقد جيوبه، اصطدمت يده بقطعة ذات ملمس بلاستيكي في جيب داخلي، وإذا بتلك القطعة هوية لشخص اسرائيلي الجنسية اسمه أور شابيرا. وما هي إلا ساعاتٌ معدودات حتى لمعت في ذهنه فكرة. فهو إذا نجح في وضع صورته مكان صورة هذا الاسرائيلي، واسمه أور، وهو اسمٌ قريب من اسمه هو (نور) فسيُمكّنه ذلك من اقتحام أي مكان بما في ذلك الأمكنة المحظورة على العربي، تساعده في ذلك معرفة مقبولة بالعبرية، وملامح ضاربة

للشقرة ولزرقة العينين. وقد أعجبته هذه الفكرة، على الرغم من أن صديقه المعتقل مراد ينصحه بالعدول عنها، محذرا.

مرسي الغرناطي

ونور هذا له صديقان أحدهما مراد المذكور، وهو الذي لا يفتأ يتبادل معه الرسائل الصوتية، والمكتوبة المخبأة بين صفحات الكتب التي يتبادلانها، ولاينفك يرافق أم عدلي في كل زيارة تقوم بها إلى المعتقل في الذهاب والإياب. والصديق الآخر هو الشيخ مرسي الغرناطي الذي يعد شخصية غير مقنعة، فهو على الرغم من تدينه اللافت، واعتياده طقوس التصوف، يوصف في نظر نور شيخا منفتحا، غير متزمتٍ، ولا متعصّب، والدليل على هذا أنه يقدم له طعاما في رمضان لمعرفته باعتياده الافطار وعدم الصوم، والعزوف عن أداء الصلاة. وهذا عجيب. والدليل الآخر أنه ساعد نورًا على تزوير هوية الإسرائيلي أور شابيرا تزويرا لا يستطيع أي ضابط أمن أن يكتشفه، والهدف الذي سوغ للاثنين هذا التزوير أن نورًا الذي يعمل لدى شكيب قصابي دليلا سياحيا، يريد أن ينضم لفريق تدريب أثري ترعاه مؤسسة أولبرايت الأمريكية، يسعى للكشف عما يمكن من أثار الفيلق الروماني السادس في مستوطنة قريبة من تل مجدو باسم كيبوتس مشمار هعميق[1]. والحق أن القارئ يتساءل إن كانت شخصية مرسي الغرناطي بهذا التصرف تقوم بما هو متوقع منها، أم أنّ تدخلات الكاتب خندقجي صرفت النظر عن هذا المطلب الذي ينبغي توافره في تصرفات الشخوص، وان تكون مما يُحتمل وقوعُهُ، أو تحتمه الضرورة.

بريان مور

قبيل أن ينضم نــور – الذي أصبح عـلى وفـق الهـوية المزورة أور – لفريق

1.فيلق أسس عام 41 ق.م. وشارك في معركة ضد مارك أنطوني واختفى بعد فتح الجزيرة الإيبيرية.

الآثاريين بإشراف الأمريكي بريان مور تذكر ما وقع له عندما رافق وفدا من السياح لزيارة برية صَرْعة التي يزعم الإسرائيليون أن فيها مقاما لشمشون. فقد شرح كثيرا عن المكان بصفته اسرائيليا متحمسا، ولكنه على حين غرة فقد السيطرة على شعوره، وقال مخاطبا الزوار الأجانب بإنجليزية بليغة:" إن كل ما تفوهت به قبل قليل ترهات وخزعبلات لا أساس لها، فأنتم تقفون ها هنا على أنقاض قرية (صرعة) العربية التي نُكبتْ وهُجِّر أهلُها عام 1948 فلا شمشون ها هنا، ولا ما يحزنون [1]". وقد طار عقل صاحب المكتب السياحي شكيب قصابي واستغنى عنه فأصبح بلا عمل، ولهذا جاءت بعثة أولبرايت هذه نجدة له، ومنعا لشعوره بالفراغ. وفي الموقع الذي تنعقد فيه اللقاءات نجح في تضليل ضابط الحراسة ناتان خودروفسكي الذي لفت نظره لانتهاء صلاحية الهوية – هوية أور طبعا – وأن عليه تجديدها في أقرب وقت ممكن.

في السيمنار تعرف على أيالا شرعابي، وهي اسرائيلية، درست الآثار في الجامعة العبرية، وأصولها شرقية من حلب في الثالثة والعشرين. في وصفه لها ما يوحي بأنها رائعة الجمال، إلا انه يشعر مع ذلك بحائل يحول بينهما. وتعرف أيضا بسماء إسماعيل وهي عربية فلسطينية تحمل الجنسية الإسرائيلية اضطرارًا لا اختيارًا. وهي في وصفه لها أكثر جمالا وإغراءً من أيالا بيد أنهما يختلفان جدا لما يبديه كل منهما من شكوكه في الآخر، فهي تظنه إسرائيليا، وهو يحاول ما أمكن أن يبعد هذه الظنون عن نفسه، وفي نهاية الأمر يصرح لها بأنه عربي من اللد، وأن ذويه لجأوا لمخيم قريب من رام الله إلخ.. وفي السيمينار يتعرف أيضا على كثير من الأشخاص، منهم: بيتر هاندرسون من هارفارد، وديفيد آدمز وهو محاضر آثار إنجليزي ونيكول وإيميلي وهما بلجيكيتان. وتعرف أخيرا على سيدة من الكيبوتس

1,خندقجي، باسم، قناع..، ص 66

دعت أيالا وأور لتناول الغداء في بيتها، فكانت الدعوة فرصة للتعرف على حياة الإسرائيليين داخل البيوت.

لعبة الأقنعة

في إحدى الجولات التي يقوم بها نور الشهدي يبلغ اللجون، وهي بلدة عربية فلسطينية تقع إلى الشمال من جنين. وقد ورد ذكرها في المصادر القديمة. وفي الثامن من أيار وجد نفسه يبحث في نواحي هذه البلدة عن بئر مسك العطار. فقد ذُكر أن له علاقة بحكاية مريم المجدلية، وبعض ما روي عنها في الروايات التي لا تخلو من بعض التلفيق. تذكر ما ذكره أ. ب. يهوشع - وهو كاتب اسرائيلي - اعترف في ندوة حضرها أور بأن الإسرائيليين قاموا بغرس الأشجار، وتكثيف الغابات لإخفاء جريمتهم التي لا تتمثل في تهجير السكان فحسب، بل في محو أثار القرى، فالغابة تساعد على طمس البقايا والدِّمَن [1] .ومن هذا المشهد الذي تمنى فيه نور الشهدى لو استطاع حرق الغابات لتصبح الجريمة جلية للعيان، تغلغل في نواحي اللجون، باحثا عن بير مسك العطار، وفيما يشبه الرؤى المنامية يصف لنا السارد ما شاهده في ذلك البئر" خفق قلبه بشدة، دبَّ الرعب في أوصاله، وهو متجمد في مكانه، ما لبث أنْ أطل برأسه.. ثمة غرفة كبيرة مقببة مليئة بالقناديل المشعة التي تعبق منها رائحة عطر زكية: عطر النارديين." [2]

وفي تلك الأثناء تطلعت المرأة إليه، فوجد فيها شبيهة سماء إسماعيل التي عرفها في فريق المتدربين على التنقيب. وبهذا تكونُ مساعي نور الشهدي، بطل الرواية الذي اتخذ منه نسيم شاكر قناعا، وهو - أي نسيم - اتخذ منه الخندقجي قناعًا – نقول- انتهت مساعيهِ بهذا الكشف، ومفاده أن سماء إسماعيل هي النسخة الفلسطينية من مريم المجدلية، وما ارتبط بها من شذى العطر الزكي؛ عطر النارديين

1.قناع بلون السماء، ص 212

2.قناع بلون السماء، ص 214

الذي عطرت به قدميْ يسوع. وهذا الكشفُ هو الكشف البديل للعثور على بقايا الفيلق الروماني السادس، وهو الذي يضع النهاية المقترحة – على سبيل المثال- للعْبة الأقنعة.

الحبكة

ما يهتم به كتبة المقالات عن الرواية* ينصرف في العادة لما فيها من شخوص أو أماكن أو لما اتبعة الكاتب من نمط سردي مستخدما الزمن، مثلما ينصرف اهتمامهم أيضا لما يوصف بالتقنيات كالوصف أو التذكر أو المونولوج والمناجاة وتعدد الأصوات واختلاف الضمائر بين ضمير متكلم وآخر غائب أو ثالث مخاطب، وفريق منهم يهتم بالعنوان. ولكنهم في معظم الأحيان يغفلون عن الحبكة، وهي في رأي بعضهم أهم أركان الرواية وأحراها بالدراسة. لأن الحبكة إذا لم تكن محكمة فقدت الرواية أي مزية في أي ركن من الأركان الأخرى. وفي هذه الرواية حبكة ثلاثية الأولى هي سعي المؤلف لكتابة رواية تاريخية يجمع مادتها ويرويها نسيم شاكر، وهذا أضعف الرواية كثيرا، فالسارد نور يبتعد كثيرا عن المجدلية حتى ليكاد القارئ ينسى أن الراوي مشغول بهذا، ثم يعود ثانية لاستقصاء بعض المرويات عنها. وفي غير قليل من هذه النوبات يتحول السرد من سرد قصصي روائي لمناقشات وآراء تقتبس من المراجع، متناظرة أحيانا، وأحيانا متنافرة، تتضمَّن ردودًا، وردودا على الردود. وفي علمنا أن هذا النوع من الكتابة غير شائع، ولا سائد في الأدب القصصي. وهو إذا كثُر كثرةً مضجرة سبب الإملال، والسأم، ودفع بالقارئ لتخطي بعض الصفحات التي تثار فيها مثل هاتيك الآراء والمباحث.

ومع هذا، فقد أسند المؤلف لهذه الحبكة دورا كبيرًا، فجاءت خاتمة الرواية كشفا لغموض اكتنف المجدلية.

اما الحبكة الثانية فتتجسد في المراسلات بين نور ومراد المعتقل لأسباب أمنية بالطبع. والرسائل الصوتية المتبادلة بينهما. وهي رسائل تكشف عن الوجه

الآخر لنور، فهو كمن يفكر متعرّفا على أخطائه، ومراد هو الذي يشير لتلك الأخطاء، وهو يقتنع أحيانا بما يشير عليه به مراد، وأحيانا لا يقتنع، فتزوير الهوية، والإدعاء بأنه اشكينازي، شيءٌ نهاه عنه مراد، ومع ذلك أصرَّ نور بعناد على القيام بهذه المغامرة ونجح فيها نجاحا محدودًا.

والحبكة الثالثة، هي تعرُّفه على سماء إسماعيل، التي أحب. وقد تضمنت النهاية المقترحة لروايته ما ينبئ عن وئام طارئ بين الخصمين. فعندما غادر غاضبًا من أور شابيرا تعرضت له بسيارتها، وعرضت عليه أن تكون سائقة له خاصة. وهذه إشارة للعثور على المجدلية في هذه الفتاة الفلسطينية التي وشمت ذراعها باسم حيفا 1948 مذكرة بما كتب على شاهدة قبر إميل حبيبي" باق في حيفا ".

تفاريق

فيما يتصل بما بقي من أركان تستحوذ على انتباه الدارسين يمكن القول بتحفظ: لقد أكثر المؤلف من الأمكنة في روايته كثرة مزعجة في بعض الأحيان، فعلاوة على ذكره المخيم واللد يلم بخربة صرعة ومجدلة وناحوم ونايين ويافا ورامات غان وتل مجدو وكيبوتس مشمار هعميق والرام والبيرة واللجون وجلبوع وجبل الكرمل وقرية الشيخ مونّس وبيت عينيا وبير مسك العطار وقرية أبو شوشة. وهذه الأمكنة بعضها يتوقف لديه السارد لوقوع بعض الحوادث فيه، وبعضها يمر بذكره مرور الكرام، مما يشكل عبئا على ذاكرة القارئ. وهذا ينسحب على الشخوص. فباستثناء مراد ونور وأيالا ومرسي وسماء فالشخصيات الأخرى لا تعدو أن تكون أسماء كتب عليها أن يكون للكل منها موقع من الإعراب ، وهو موقع الاسم الزائد الذي تصح الجملة به، وبدونه. وقد أبدى المؤلف مهارة فائقة في تقنية التذكر والمونولوج، ولا سيما في الحوار الذي يؤدي فيه نور دوره، ودور أور. أو الحوارات التي تتخلل الرسائل إلى مراد، وهذه نزعة تجريبية صعبة أجادها خندقجي، مما يحيل بعض المواقف في روايته لمشاهد في سيناريو. والملاحظة الأخيرة تتعلق بلغة

الكاتب، فهي، مثلما تبدو في بعض الصفحات مشرقة، وناصعة الديباجة، تبدو في بعضها كلغة الصحافة، لا تخلو من أخطاء، إما بسبب الطباعة، أو التسامح النحوي، إذا جاز التعبير.

---

*.ممن كتبوا عن الرواية كتابة غلبت عليها الاحتفالية الثورية محمود شقير في صحيفة حزب الشعب 23/ 5 / 2024 وغنوة فضة في موقع الرؤية العمانية7 نيسان – إبريل 2024 وخالد جمعة في وكالة وطن، 3/16/ 2024 ودلال قنديل في ميزان الزمان 2024/8/5 وقصي الحسين 8/5 /2024 و نبيل طنوس في موقع أمد 2024/5/11 وسامر المجالي- الدستور الأردنية10 /5/ 2024 وزينب السعود- 2 /5 /2024 في الدستور الأردنية، ورامي أبو شهاب في القدس العربي 2024/8/9 . وعبير غالب علبة في القدس العربي 2 /9/ 2024 ومجدي دعيبس في ع 432 من مجلة أفكار الأردنية. وهذه الكثرة من الكتابات سببها فوز الرواية بجائزة البوكر، مما يتم على أن النقد العربي الروائي نقد يعتمد على رد الفعل، وليس على المنهج، فما إن تفوز رواية بجائزة حتى يتهافت على تقويمها النقدة تهافت الفراش على الشهاب، والذباب على الشراب.

آخر القلاع لرائدة الطويل

رواية مونولوجية

تبدأ الحروب، وتدور رحاها، ويذهب الناس من ضحاياها بالآلاف إن لم يكن أكثر، ثم، تضع أوزارها، لكن آثارها الدامية لا تنتهي ولا تتوقف. بل تتواصل وتطرد عبر الأجيال ، وتترك بصماتها على الناس، جيلا بعد جيل. إن لم تكن على اجسادهم ففي وجدانهم على الأقل. وهذا ما تريد أن تقوله رائدة الطويل في روايتها الجيدة " آخر القلاع ".

فالحكاية تتخذ في هذا النص السردي الممتع طابع الترَسُّل، فالمؤلفة تكتب قصتها على هيئة خطاب ترسله الساردة (شاتيلا) شفويا عبر قناة اتصال غير منظورة لمرسل إليه(سليم) من فتاة المخيم(شاتيلا) في بيروت إلى تولوز بفرنسا. يتضمن الخطاب - في ما يتضمَّن – سردا لوقائع تمتد من حيث الماضي إلى العام 1947 وهو العام الذي ولد فيه سليم من أبوين فلسطينيين. دفعت بهما النكبة إلى لبنان، والعيش في خيمة من الكتان(شادر) قبل أن تتحول الشوادر إلى جدران وأسقف من الصفيح، والقصدير، وسرعان ما تحولت إلى بيوت متراكمة بعضها على بعض من الطين والطوب والإسمنت المشاد على عجل بطرق عشوائية من غير تخطيط حضري.

وفي المحكي المتخيل كثيرا ما تُذكّرُ الساردة سليما بالماضي. الماضي الذي لا يخلو من مفاصل زمنية لا بد لها من أن تستوقف القارئ. فأم سليم (الحقيقية) توفيت بعيد النكبة بقليل، ليقع والده بعشق فتاة لبنانية (آمال) فتزوَّجا، ولأن آمال (عاقر) ولم يتح لها أن تكون أمّا، فقد تخذت من سليم ابنا ، وعُرفت تبعا

لذلك بأمّ سليم، وميزوها عن أمه الحقيقية بإضافة كلمة اللبنانية. وهي عدا عن ذلك اللبنانية الوحيدة في المخيم.

جراح نازفة

أما المفصل الزمني التالي، فهو الذي يستحقُّ الوقوف عنده وَقْفة طويلة ،وقد أشير إليه عند ذكر شهر نيسان – إبريل من العام 1982 ففي ذلك الشهر اجتاح الإسرائيليون جنوب لبنان وتجاوزوا الليطاني، ووصلوا إلى بيروت. وفي حمأة القتال، وذروته، كانت الساردة شاتيلا قد مرَّت على ولادتها بضع سنين. وأمها كانت قد توفيت بُعَيْد ولادتها بوقت قصير بسبب حمى النفاس. ونجاتها من الاشتباكات التي اندلع أوارها في الكرنتينا هي السبب في تسميتها شاتيلا، فقد أخبرتها خالتها (إحسان) بأن أمها نذَرَت إنْ هي استطاعت النجاة، والوصول إلى مخيم شاتيلا، لتُسَمِيَنَّ المولود إذا كان بنتا شاتيلا، وهذا ما كان.

وتتعرض شاتيلا لمثل ما تعرَّض له من يحيطون بها من المقيمين في المخيم ليلة 16 أيلول – سبتمبر من اجتياح أتباع سَعْد حداد، وميليشيا الكتائب، للمخيم، فيما أصبح معروفًا بمجزرة صبرا وشاتيلا. وما جرى للطفلة التي كانت في حينه في الخامسة، ولسليم الذي كان شابا ناهز الثلاثين، ترك لديهما جراحًا بالغة ظلت من ذلك الحين تنزفُ مع الأيام. وقد أصيبا في الاجتياح، ولكنهما لحسن الحظ لم يفارقا الحياة، شأن والد سليم. وخالة شاتيلا إحسان. وعاشت الطفلة وحيدة لا راعيَ لها، ولا مُعيل، إلا أمّ سليم اللبنانية، وسليم نفسه. فما كان لها بدّ من التعلق بسليم تعلقا ظلَّ يكبُر مع الأيام.

سَفَرُ العاشق

وثمة مفصل زمني آخر يتقاطع مع المكان، وهو مرحلة بين مرحلتين في متواليات هذه الحكاية. فسليم، كغيره من الفلسطينين الذين رأوا الموت الأحمر بأعينهم في المخيم، ضجر من الحياة فيه، فسعى سعيا حثيثا جادًا للسفر، وتكللت

مساعيه تلك بالنجاح، فغادر إلى فرنسا للدراسة. فكان سفرهُ مصدرا آخر من مصادر المعاناة لدى شاتيلا. إذ كانت تتمنى أنْ يظلَّ إلى جانبها، وهي التي ترى فيه القلعة الوحيدة (آخر القلاع) والجدار الأخير الذي تستند إليه، والمظلة الوارفة كشجرة الياسمين التي تقيها عوادي الزمن، لا حرارة الشمس، أو برودة ماء المطر، فحسب. بيد أنه في النهاية سافر. وهي تُذَكِّرُهُ في هذا الخطاب الممتد على صفحات الرواية بالوقائع اليومية التي سبقت سفره، أو أعقبته، في سرْد تفتح به قوسًا يضمّ بين شقيه أحداثا، وتفاصيل، تنكأ الجراح، وتملأ الأعين بالدموع.

هذا المُفتاحُ لي

أما النقلة الأخرى التي أعقبت سفر سليم، وحلوله في تولوز، فهي مغادرة أمه اللبنانية آمال من مخيم شاتيلا إلى عاليه - وهذا شيءٌ زاد من إحساس الفتاة بالصدمة، فقد غادر سليم المخيم، وها هي توشك أن تغادره. فمن يتبقى إذن للبيت؟ البيت الذي عرفته فيه.. وعاشت تحت سقفه، وبين جدرانه الكثير من ذكرياتها، وطفولتها المبكرة؟ عندما جمعت هي وأم سليم الأمتعة استعدادًا للرحيل، أرادت الاحتفاظ بالمفتاح، في حركة رمزية تذكرنا بما عرف عن الفلسطينيين الذي غادروا حيفا ويافا واللد والرملة وعكا من حرص على الاحتفاظ بمفاتيح بيوتهم على أمل أن يعودوا إليها ذات يوم. فكأنَّ الأمر نكبة أخرى، وهجرة جديدة. بيد أن آمال منعتها من الاحتفاظ بالمفتاح وصاحت بها:

- اتركيه، هايدا مو إلنا.

كانت تودّ الاحتفاظ به لأن فيه ما يذكرها بالماضي. " هو لي، بعد ما أطبق على طفولتي الحائمة في الباحة، وحَرَسَها من التسرب أو التلاشي، وحبس عبير الياسمين من الضياع في روائح البارود.. والموت... لأنني على الرغم من كل ذلك

لم أكره صرير بابه. بقيت أستمع لاصطكاكه وأنا أتأمل عودتِكَ لتزيين عالمي الأسير وراءه . هو لي. وملكي أنا ...[1] "

نافذة على العالم

وأيا ما يكن الأمر، فإن النقلة الجديدة مكانيا أتاحت لشاتيلا نافذة جديدة تظل منها على العالم من موقعها فيه. ذلك العالم الذي ينظر إليها بوصفها عضوا زائدا ينبغي بتره. فأسرة آمال (أم سليم) اللبنانية يزدرونها لأنها فلسطينية تارة، وتارة لكونها من مخيم شاتيلا. فاسمها يذكرهم بالحرب الأهلية، ومآسيها، والدماء التي أريقت فيها ولما تجفّ. هذا على الرغم من أنهم لا ينكرون وقوف الفلسطينيين إلى جانب الدروز – جماعتهم- وجماعة جنبلاط. ومع ذلك فهم يزْوَرّونَ عنها، ولا يحتملون رؤيتها مثلما لا يحتملون رؤية ابن زوجها سليم، أو سماع أخباره، ولهذا تحاول ما أمكن تجنب هذه المعاناة الجديدة عن طريق الرسائل التي يمكن أن تتبادلها مع سليم إن هي استطاعت. يقول صاحب البقالة القريبة من البيت: لما تكبري، وتعرفي العنوان ببعثو لك لسليم . تكرمي .

ورم خبيث

يؤدي ظهور ورم خبيث لدى آمال لشيء من التحول، فهو يعد حافزا إضافيا تتعاظم بسببه معاناة الفتاة التي تتجرَّعها قطرة قطرة. وترفض أم سليم المغادرة إلى باريس بهدف العلاج. " ما بترك أرضي لوْ عَ جثتي " [2] فيما كانت شاتيلا تتمنى هذا السفر كي ترافقها فتكون قريبة من سليم. " كم كرهت وطنيتها تلك التي فضلتها على الغربة. والعيش في رغد ورفاهية وهدوء! كنت أتساءل: لماذا تعلقي

1.الطويل، رائدة، آخر القلاع، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2016 ص 35

2.آخر القلاع، ص 31

بِكَ أكبر من تعلقها هي؟ لم أقوَ على كبح عتبي على والدك الذي تزوج من لبنانية بدلا من فلسطينية يسري في عروقها التشرُّد؟ الله يسامحك يا أبو سليم عَ ها العملة" [1]

تتراكم المنغّصات: ترميم البيت في عاليه. ماكنة الخياطة. وترتيب الملابس المخيطة. وإرسالها إلى بيوت صاحباتها من النساء. والتلفزيون الأسود والأبيض. كل ذلك لا يحول، بل يزيد من، ويضاعف، شعور الفتاة بالوحدة التي تعني لديها مزيدا من التعلق بسليم، ومزيدا من الحياة إلى جانبه. واستعادة أصداء الماضي معه بجلّ ما فيها من الحلوة والمرة. وإن كان المرّ فيها أكثر من الحلو. وعلى نحو مفاجئ تتحول الوقائع فيما يشبه الانقلاب الذي تكلم عليه أرسطو في وصفه لحبكة المأساة. فقد طرأ شيء يتيح للفتاة التي اقتربت من عامها السابع عشر المغادرة إلى فرنسا. وإلى تولوز تحديدًا، وتحقيق ما كانت تتوق له توقا شديدا، فما هو هذا الطارئ؟

آمال شاردة

فأبو إسماعيل- الميكانيكي – كان قد أرسل ابنه للدراسة في فرنسا بمساعدة من منظمة التحرير، وقد أصبح بعد تخرجه، وممارسته المهنة، جراحا لامعا مشهورا في تولوز. وتزوّج من فرنسية ستانيسنا، ورزق باثنين من الأولاد محمود وخلدون، وهما يحتاجان لمن يعلمهما اللغة العربية؛ إذ لا يتكلمان إلا الفرنسية، التي اكتسباها من أمهما، ومن الخادمة الأفريقية، التي يقضيان الوقت الطويل معها بعد مغادرة الأبوين إلى عملهما. وأبو إسماعيل يتضور ألما لكونهما لا يعرفان شيئا عن وطنهما فلسطين. ويقضيان غالب وقتهما مع تلك الخادمة. [2] وقد اقتنعَ

1.آخر القلاع، ص 31

2.المصدر السابق،ص 82 - 84

إسماعيل بضرورة اختيار من تعلمها العربية، ووقع اختيار الأب عليها هي. وقد أسعدها الخبر كثيرا. وأفرحها، على الرغم من أنها ستغادر البيت الذي عادت إليه من عاليه، ولم تشف غليلها منه بعد. فما إن وقع على مسامعها هذا الاقتراح حتى بادرت وسارعت بالقبول. بلا تحفظ أو تردّد. فمع سليم في أي مكان، والسباحة في زرقة عينين تتوارى فيها سماوات وأبحر ومحيطات.. وفي بريقها يشرق الفجر .. لتتسع السماءُ .. ويمتد المدى ..أكثر فأكثر.. هو الوطن بجلّ تفاصيله.. دفء، إنتماء، نشيد الصباح. رائحة التراب . إشراق الشمس. .. رجع الصدى .. وتراقص الحقول .. همستْ" [1]

تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

بيد أن الرياح لم تجر بما تشتيهه سفن شاتيلا. صحيح أن قدومها إلى تولوز، ولقاءها بسليم مجددا. ومشاهدة اللوحة التي قام برسمها بالألوان مطلقا عليها اسم شاتيلا، أنعشت في نفسها، وفي قلبها، الآمال العِراض، والأماني العِذاب، بعودة سليم إلى التعلق بها مثلما كانت تتوقع، وتأمل، بعد أن أصبحت في عمر لا تصغر فيه على الحب، مثلما كان يقول لها مرارا.. بيد أن البرد القارس سرعان ما حل مكان الدفء. فقد اكتشفت، ويا لهول ما اكتشفته أن سليمًا كان قد وقع في حبائل فرنسية اسمها (جوزفين) مدت له بزعمه يد المساعدة، والتشجيع، والعون. وأخذت بيده صعودًا لسلم النجاح والشهرة التي حققها بوصفه فنانا كبيرًا يكاد اسمه لا يغيب عن الزوايا الفنية في الصحف التي لا تفتا تتحدث عن إنجازاته، وعن معارضه المتكررة التي يؤمها هواةُ اقتناء اللوحات، والتحف.

وهذا الاكتشاف المتأخر سدَّد إليها ما يشبه الطلقات التي تذكرها بتلك اللحظات التي تظاهرت فيها بالموت لإنقاذ نفسها من بطش الكتائب، فيما كانتْ

1.المصدر السابق، ص 84

ساقها المصابة تنزف. بدأت تعيد النظر وتسترجع الذكريات. البيت، الجدران الطينية المتربة، المليئة بالشقوق، والياسمينة .. خربشات سليم على الحيطان بالفحم. .. ترميم المنزل في جبل عاليه وماكينة الخياطة... المفتاح الذي أبت عليها أم سليم الاحتفاظ به ولو على سبيل الرمز. حتى كان المعرض الذي دعيت لحضوره في أبهى زينة، وأفضل لباس. في ذلك الافتتاح تراكمت الصواعق وانثالت عليها واحدة تلوَ الأخرى. شعرت لأول مرة بأنها غريبة ممزقة. وأن سليما هو من يحاصرها في هذه الغربة الجديدة. ويشعرها بأنها أقل من أن تكون موضع اهتمام، أو أنْ تخطر له ببال. فهو مشغول بجوزفين وبورود جوزفين: " بصعوبة انتشلت نفسي من كمين نظراتكما المتبادلة. في لهيب المسافة بينكما. صرت أمشي في المعرض تحت ظل الياسمينة هربا من وابل الرصاص الحي الذي كانت تقذفني به فجيعتي بعد أن ذاب داخلي الحلم الذي لم يرسمْ أحدًا سواك." [1]

اللحظة الحرجة

في تلك اللحظة تتخذ شاتيلا قرارها الذي يذكرنا بموقف نورا في مسرحية هنريك إبسن Ibsen بيت الدمية Doll's House فعزمت على مغادرة تولوز والعودة إلى المخيم ، وعندما سألها سليم، قائلا:

- لوين؟

أجابت مدارية ما في داخلها من الخوف:

- لأي مكان لستَ فيه.

بهذا تغيرت رؤية الساردة للمكان، فقد أصبحت تولوز وفرنسا نموذجا آخر من مخيم شاتيلا ليلة المجزرة. " فرنسا البشعة صفحة من تاريخنا النازف أنينا وخيبة". ولا يفلح ظهور نور الدين – الفرنسي من أصل جزائري- وهوَ

1.آخر القلاع، ص 121

صديق لإسماعيل في التخفيف من وقع الصدمة التي تعرضت لها الفتاة. فأعادتها سريعا إلى كل ما هو مؤلم في الماضي. رائحة القماش.. ماكينة الخياطة. نظرات الإزدراء في الجبل. الأيام الطويلة التي التهمها الحنين إليه. فالسكين التي أغمدها سليم في صدرها بتولوز جعلتها تتمنى أن تهوي صريعة تحت شجرة الياسمين التي تستظل بها مثل قلعة آخيرة تلملم أحزانها الممزقة بين شاتيلا (المخيم) وتولوز (المنفى) .

رواية مونولوجية

ومن يتأمل الرواية «آخر القلاع» وهي روايةٌ قصيرةٌ مكثفة يدهشه ما تبديه الكاتبة من اقتدار على جعل المونولوج الداخلي يتمدد هبوطا، وصعودا، من بدء الحكاية إلى نهايتها، كاشفا عن علاقة الآني بما مضى، ملقيا الضوء في الوقت ذاته على شبكة من الحوافز التي تدفع دفعًا بالمتواليات السردية نحو اللحظة الأخيرة. فعندما تداولَ أهل المخيم، فزعين، أخبار سعد حداد، والمجرمين الانعزاليين الذين تبعوه، بإغارتهم الليلية على المخيم، كان ذلك حافزا منطقيا لتداعيات حملتنا فيها الكاتبة عبر مونولوج يسبرُ وعي شاتيلا (الطفلة) وسليم الذي أفاق من غيبوبته في مشفى غزة، صائحا بها:

«أبي وأمي وَيْنُنْ « ويأتيه الجواب «أبوك قوصوه، وأمك ما ماتت. فالمونولوج ينفرج في هذا الموقف باتساع، مستوعبا الجلبة داخل المشفى، أما هاجس السفر إلى فرنسا فقد راود سليم ليكون بذلك حافزا للدفع بمزيد من الوقائع. فقد غادر إلى تولوز، وهذا سبب منطقي لتيار من التداعيات، والأحداث، التي سبقت سفره، وتلته. ومغادرة أم سليم المنزل، والعودة إلى بيتها في الجبل ـ عاليه حافزٌ آخر لمزيد من الحنين المفعم بالذكريات، والتوق لعودة سليم من سفره: حنين للمخيم، لبيت أبي إسماعيل، لجمعة بشر المهبول، وحركاته التي تثير الضحك. أما الورم الخبيث الذي اكتشف في رأس أم سليم (آمال) فهو حافز آخر يطرح للمرة

الأولى فكرة السفر إلى باريس للعلاج من السرطان. بيد أنها ترفض السفر، مثلما مرّ، وتأتي وفاة آمال بنتيجة أخرى، وهي اضطرارُ الفتاة لترك عاليه والعودة مجددا إلى المخيم، باقتراح من سليم، إلى آخر قلعة، إلى شجرة الياسمين مرة أخرى، لتتجه بوصلة الحنين ثانية إلى تولوز.

من هذه الحوافز المتكررة، المتلاحقة، يُلاحظ الدارس أن الرواية نُسجت خيوطها بدراية، وخبرة، وحرفيَّة مُحكمة، يكاد القارئ لا يصدق أن هذه الرواية هي الرواية الثانية لرائدة الطويل. فلا بد أن تكون ثمة محاولات سبقتها ناجحة، أو متعثرة، فاكتسبت من هاتيك التجارب القدرة على الاستمرار في منولوج واحد من بداية الحكاية حتى النهاية التي تتمثل في العودة إلى نقطة البداية: شجرة الياسمين قلعة (شاتيلا) الأخيرة، معتمدة في الوقت ذاته على تكرار ضمير المخاطب، وهي طريقة في السرد الروائي قلما ينجحُ في اعتمادها الكتاب.

أما العواملُ المحركة لهذه الأحداث، فهي الشخوص، صحيحٌ أن الشخصيات في الرواية قليلة العدد، لكنها- في مطلق الأحوال- شخصيات فاعلة في اتجاه، وغير فاعلة في اتجاهٍ آخر. فخلدون، ومحمود، ابنا إسماعيل، وإسماعيل نفسه، ونور الدين، وزوجة إسماعيل، والخادمة الأفريقية الأصل، وجمعة بشر، والخالة إحسان، وأبو مروان صاحب العينين الحسودتين، لا تعني الكثير بالنسبة للوقائع، فالمعوَّل في دينامية السرد على آمال و(أبو إسماعيل) الذي لا يمل العمل في ورشة الميكانيك، ولا يفتأ يوسع بيته بصفائح الزينكو والخشب والطوب كاتبا على باب الكراج بخط عريض «عائدون». فهو الذي فتح الطريق أمام شاتيلا ذات الـ 17 ربيعا للسفر إلى تولوز، وتدريس خلدون ومحمود العربية، لتكتسب بدورها معرفة بالفرنسية. ومما يلفت النظر تركيز الكاتبة اللافت على الصفات المميزة لشخصية أبي إسماعيل. فعلى الرغم من العناء الذي يتعرض له بسبب

مهنة (الميكانيك) دائم الرضا، لا يشكو، ولا يتبرم. «يوسع بيته شيئا فشيئا بصفائح الزينكو، وقطع الخشب، البالية، والطوب.. قوي الإرادة دائم الابتسام، وهو يعطي ظهره للبحر، والمنفى، والفرنكات». وتعجب الساردة كيف لشخص كهذا أن يحتفظ بحرارة الحنين للوطن فلسطين، وكأنه غادره توا. لقد كتب على باب كراجه كلمة عائدون كما مر، كأنها البوصلة التي توجه أحلامه، وآماله، بالتحرر من المنفى. لم يعارض سفر ابنه إسماعيل لدراسة الطب في فرنسا، بيد أنّ قلقا ظل يساوره من أن يؤدي نجاح إسماعيل في دراسته وعمله هناك، لنسيان الوطن فلسطين. أكثر من ذلك يقلقه ألا يتكلم حفيداه العربية، وألا يعرفا شيئا عن وطنهما فلسطين». ما القوة التي تجعل أبا إسماعيل يتمسك بفتات وطنه ويخبئه داخله، حتى امتزج باللحم والدم؟ وكيف راح يِرْبوا أولاد إسماعيل بلا هوية، وبلا عروبة؟ ولاد إسماعيل ما بعرفوا شي عن فلسطين..[1]".

وبكلمة موجزة، ترسمُ رائدة الطويل شخصية أبي إسماعيل بأناة، وبعبارات قصيرة، لكنها تترك لدى القارئ الكثير من الإيحاءات التي تلقي الضوء على عالم هذا النموذج الإنساني. وهذا دأبُها في سائر شخصيات الرواية. فبلمساتٍ سريعة تقدم لنا شخصية نور الدين، وجوزفين، ونستانسيا، زوجة إسماعيل، فهي شخصياتٌ لا تحتاج لأكثر من هاتيك اللمسات، كونها شخصيات مساندة لإسماعيل، ولا وظائف لها تتعلق ببؤرة الرواية، أما الذي يحتل فيها موقع التبئير فهو سليم. سليم الذي يتمتع بحضور دائم في ذهن الساردة، وبغياب دائم على المستوى الواقعي الفعلي. فمن خلال المنولوج الداخلي المتشكل في هيئة خطاب تتفوه به راوية لمن تُروى له، الدائمُ المثول، والحضور، على الرغم من أنه في تولوز، وهي في شاتيلا. واللحظات القليلة التي التقيا فيها هي أكثر اللحظات التي كانا

آخر القلاع، ص 82 - 84

فيها مفترقيْن، في البعد كانا متقاربين وفي القرب أصبحا متباعدين، بل على طرفي نقيض، هي تحاول استعادته مثلما تستعيد الريح غيمة شاردة، وهو يحاول – بصورة ما- أن يسوغ لها الاستعلاء على الماضي، ماضي المخيم، وشجرة الياسمين، وجدران البيت المليئة بالشقوق، والخربشات على الحيطان. وهكذا يكون الانشطار في شخصية سليم إيذانا بالانشطار الذي تعانيه شاتيلا، بين مكانين، أو بين حالين، التشبث بالماضي الذي كان، والنجاة من حاضر تعِسٍ كانت ترجو ألا يكون.

صراع الأمكنة

شيءٌ آخر ينبغي ألا يفوت القارئ، وهو موقف الكاتبة من المكان، ذلك أن إحدى قواعد اللعبة الروائية في آخر القلاع، إذا تجاوزنا العنوان، هي صراع الأمكنة. ففي المخيم (شاتيلا) صراع يحتدم مع الأرجاء المحيطة به من بيروت إلى تولوز.

فثمة عالمان: أحدهما صورة دقيقة للجوء، والحزن، والنفي، والآخر عكس هذا. وثمة أيضا طرف ثالث يدخل في معركة الأمكنة، وهو الجبل ـ عاليه – بما فيه من طبيعة جميلة أخاذة، ولكنه يبدو لشاتيلا أقل سحرا من ذلك المخيم. فالحياة لا معنى لها في المكان بعيدا عن علاقاتنا بمن عرفناهم، ووجدنا فيهم الألفة، والمحبة، والاستقرار. فما الذي تعنيه جماليات البحر، والشجر، والحجر، للإنسان، إذا كان الذين فيه يزدرونه، وينظرون إليه شزْرًا. ما الذي يعنيه سحر الأمكنة من شوارع، وحدائق، ومتنزهات في تولوز، إذا كان من نتوق له، ونتشوف، يبادلنا المحبة بالطعنات؟ فمعادلة بسيطة جدا كل هذه الأمكنة – على ما فيها من جمالياتٍ، وما تحتويه المشاهد الوصفية لها من دلالاتٍ – لا تساوي شيئا، إذا قيست بشجرة الياسمين، في المنزل المتداعي في المخيم، تلك التي تجد فيها بطلة

الرواية ما يشعرها بالألفة، والاستقرار، والأمان، ولو أن هذا الأمان أضْحى بالنسبة لها أحدَ المستحيلات.

صفوة القول هي إنَّ رواية «آخر القلاع» على قِصَرها، وكثافة السرد فيها، وقلة عدد الشخوص، تقول ما لا تقوله روايات أخرى. وتثير في النفس الكثير من الأصداء عن حوادث وقعت قبل نيف وثلاثين عاما، إنْ لم يكن أكثر، وكأن البطلة قد خرجت من غبارها للتو. وترسم بقلمها الرشيق، وأسلوبها البسيط، وحواراتها التي تختلط بها لغيَّاتٌ، ولهجات عدة، من عامية لبنانية، لفلسطينية، لعربية فصيحة، وفرنسية مرارا، مصائر شخصياتٍ تتفاعلُ، وتتنازع، في فضاءٍ مأزوم، وبذلك تكتسب الرواية الديناميكية السردية التي تضمن لها الحدَّ الأقصى من السلاسة، والتشويق.

عابرو حريق لرائدة الطويل

القيادات التقليدية وإشكالية الهوية

في روايتها آخر القلاع (بيروت 2016) اتخذت رائدة الطويل من الترسّل، والمونولوج، وضمير المخاطَب، لا المتكلم، ولا الغائب، نسقًا سرديًا بدأ في مستهلّ الحكايةِ، واستمر في اتجاهٍ خطّي إلى أنْ بلغَ ذروَتَهُ، فجاءَ النسقُ خطابًا ترْسله الساردةُ شاتيلا - وهو اسم الفتاة التي وُلدت في الوقت الذي نُفّذت فيه مجزرتا صبرا وشاتيلا في سبتمبر/ أيلول من العام 1982 – شفويًا عبر قناة للتواصل غير منظورة، لمرسَلٍ إليه هو سليم، أحد من نجَوْا من تلك المجزرة، وعاش في بيروت، ثم غادر للدراسة في طولوز بفرنسا

فهو خطابٌ، مثلما جاءَ في الفصل السابق، يتضمَّنُ، في ما يتضمن، سردًا لوقائع تمتدّ في الماضي إلى العام 1947 أيْ العام الذي ولد فيه سليم – المخاطَب - من أبوين فلسطينيَّيْن دفعتْ بهما مذابح النكبة إلى لبنان، والعيش في خيمة من الكتّان، تحولت إلى (شادر) ثم إلى سقيفة من القصدير، والصفيح، قبل أنْ تغدو بيتًا من الطين، والطوبِ، والإسْمنت، شُيد على عجلٍ، وبطريقةٍ عشْوائيّةٍ كغيره من المنازل التي يكتظُّ بها مخيَّمٌ يفتقرُ إلى التخطيط الحضري.

البيت

ويبدو أنَّ البيت الذي احتلّ حجر الزاوية في «آخر القلاع» يحتلّ في روايتها هذه «عابرو حريق» الموقعَ نفسه، وإنْ كان الأمْرُ بطريقةٍ مختلفةٍ، وفي صورةٍ أخرى.

يتذكر عنانُ، وهو أحد شخوص الرواية، الحريق الذي اندلع في البيت، وأتى على مَنْ فيه، وما فيه، من الأثاثِ، والمتاع، والأشخاص،ولم يبق من مقتنياته إلا القوشان (الصك) الذي أنقذته أمّ عوض(فاطمة) ولهذا كلَّما تذكر الحريق، تذكر إلحاحها على الاحتفاظ بذلك القوشان، الذي أخفته تحت كتلةٍ من التراب في موقع ما في البستان على كثَبٍ من قبر جدها الوليّ الصالح زكريا. فضياع ذلك القوشان معناهُ ضياعُ البيت، لهذا تلح إلحاحًا شديدًا على صيانته من أي عطبٍ يلحق بهِ من رطوبةٍ، أو حريق.

فقوشان البيت هذا هو ماتبقّى لأمّ عوض، ولعنان. ثمة أشخاص آخرون ينظرون بأعينهم لهذا البيت، فيما يحسب تقنية رمزية، طامعين فيه. مختار البلد أحد هؤلاء، إنْ لم نقل أكثرهم نفوذًا ومالا، وأعزهم نفرًا. وهو أقدرُهم على الوصول لما يريده بالدسائس، والمكائد. فقد ضمِنَ مساعدة الشيخ عارف، إمام الجامع، وأبي كمال، صاحب الصهاريج، والحكيم (طبيب) يوسف الحاجّ، وغسان الأعرج، وخليل، شبه المتخلف عقليًا، ولا يقف لهذا المختار بالمرصاد سوى حياة، و بلال، وعَنان، وأم عوض.

الغولة اختطفت حياة :

كانتْ (حياة) قد عاشت لمدة قصيرة في بيت المختار، ولا تخفى الساردةُ أنه طالما تحرَّش بها، وأنَّ زوجته دبَّت فيها نارُ الغيرة، فطلبتْ منه طرْدَها، وإلا لن تبقى له في بيْت. تزوَّجها سرًا بشهادة الشيخ عارف، وأبي كمال. وفي نهاية المطاف وجدت نفسها حاملا، وخشية الفضيحة، فساعدتها أمّ عوض على إخفاء الأمر عن أهالي البلدة. وعندما جاءَها المخاض، ورُزقت طفلا، فارقتِ الحياةَ على نحو مفاجئ، ومُفجع[1].

1.الطويل، رائدة، عابرو حريق،ط1، عمان: جفرا (ناشرون) 2023 ص ص 50- 51 ، و 88

وهذا يتكرر تقريبًا في الحديث عن ازدهار، أم عنان. فقد كانتْ تحاول التخلُّصَ من الجنين (عنان) ولكنها لم تنجح [1]. وعانت من داء السُلّ قبل الولادة، وتوفّيَتْ بعدها مباشرة. [2] ومثلما ارتاب كثيرون بحياة ارتاب كثيرون بازدهار، فنشأ عنان يعاني من نقصٍ قِوامُه الشعور بأنه مشكوكٌ بنسبه، وحسبه، وأنه لقيط، أو شِبْهُ لقيط، وأنَّ ملامحه البيّنة في زرقة العينين، وشقرة البشرة، دليلان. وظلَّ طوال حياته يُنادى بابن ازدهار، ولا ينادى باسم أبيه الذي انتحر بُعيْدَ وفاة أمّه في ظرفٍ غامِض، وقيل أخذتها الغولة.[3] لذا يقول عن نفسه دائمًا إنه امتداد الخطيئة، والخزْي، وظلّ العار [4].

أما بلالُ، فقد كفِلَهُ الحكيمُ (الطبيب) يوسف الحاج.[5] وحرصَ، على الرغم من أنه مسيحي، على تربيته تربية إسلامية. فرعايتُه له كرعاية أم عوض لعنان. إذ لم تبخل عليه بما يتّصلُ بخفايا البلدة، وأسْرار الشخوص، من المختار، إلى الشيخ عارف، فأبي كمال، فالوليّ الصالح زكريا، الذي دُفن في موقع من البستان قريبًا من البيت الذي ينازعها فيه المختار، ويحاول امتلاكه: بيعًا، أو احْتلالا، أيْ من قبيل الاستيلاء غير الشرعي.

تفاصيلُ المكان

واللافت أنَّ الساردة، كي توضح لنا الأجواء الخاصّة بهذه البلدة، تذكُرُ الكثيرَ من الجوانب التي تزيد الصورة وضوحًا على وضوح. فهي تنبّه - عرَضًا –

1.عابرو حريق، ص43

2.المصدر السابق، ص 45

3.المصدر السابق، ص 21

4. المصدر السابق، ص 47

5.المصدر السابق، ص 24

لأحد الشخوص (أبو كمال) وامرأته، وابنه الذي ترك البلاد، وغادر إلى إسبانيا، وهناك اعتنق النصرانيّة ليتزوج من إسبانية، ورُزق طفلا سماهُ فيكتور. فاتخذ أبوهُ قرارًا بحرمانه من الميراث [1]. عدا عن هذا، كان أبو كمال قد قتل شقيقتَهُ فيما يُظن أنه جريمةُ شَرَفٍ. وقضى مدة في السجن أطلق بعدها سراحُه بمساعي الوُسطاء؛ كالمختار، وإمام المسجد الشيخ عارف [2]. ومن باب التوضيح، واعتمادًا على الذاكرة الشعبية، ولإقناع المتلقي بأنَّ هذه البلدة موجودةٌ، وليْسَت من صنع الخيال، تومئُ مرارًا (للغولة) وهي كيانٌ خرافيٌ يؤمنُ به أهالي القرى. فقد أقسمَ حارسُ بستان المختار أنه شاهد هذه الغولة بعينيه اللتين غدًا يأكلها الدود [3]. أما عنان، فلا يتوق لشيءٍ قدْرَ توْقِهِ لمعرفة المزيد من التفاصيل عن بيْت حياة، وعن حكايتها المتداوَلة مع الغولة [4].

ولا تفتأ الساردةُ تحاولُ أنْ تجتذبَ بِلالا نحوها، فهي تحبُّه، ولا تعرفُ ما إذا كان يبادلها الشعور إياه. أما أكبر الاحتمالات، فهو عزوفُه عن هذه العلاقة لما يجده في نفسه من تشويهٍ نتَجَ عن الحريق الذي اندلع في البيت سابقًا، وترك آثاره، لا في وجهه وحدَهُ، بل أيضا في وجه عنان، ويديه. لذا، كلما سألته عن الأحوال، أجابها: لست على ما يرام [5]. ولا تفتأ تشير لعلاقة المختار بالشيوعيين، أو لقربه من الشيوعيين، وأنه ملحدٌ، أو قريبٌ من الإلحاد، مع أنَّ هذا يتناقض مع علاقته الحميمة بالشيخ عارف إمام المسجد، فهو الذي روَّج لبطولاته المزعومة عندما هاجم اللصوص بستانهُ، فتصدَّى لهم، وأطلقوا عليه النار ففقد بذلك أحدَ

1.عابرو حريق، ص ص38- 39

2.المصدر السابق، ص 38

3. المصدر السابق، ص 28

4.المصدر السابق، ص41

5.المصدر السابق، ص 56

أصابعه(السبَّابة) علمًا بأن الحقيقة تقول: إن إصبعه تلك بُترتْ بسكين، وأنَّ التي بترتها هي حياة، وهذا ما تعرفه القابلة أم عوض حقَّ المعرفة، لذا ظلَّتْ على الدوام تتندَّر عليه قائلةً له: هل عثرتَ على الإصبع؟

تَحوّلٌ

ثمة تحولٌ مفاجئ في الحكاية يتجلى في الاجتماع السري الذي ضمَّ كلا من المختار، والإمام، وأبي كمال، وغسّان الأعْرج، في البستان. والغرض من هذا الاجتماع لم يتضح إلا بعد شيوع خبر تسميم خزان المياه الذي يزود البيوت بماء الشرب. [1] والهدف من هذا الادعاء، الذي تبين أنه زعمٌ كاذبٌ، تمكينُ أبي كمال من تزويد البيوت بمياه الصهاريج، والحصول على مبالغ كبيرة، مع أنَّ أمَّ عوض ظلت تواصل استخدام المياه الواردة من الخزان، ولم تتأثر بشيءٍ، مما يؤكّد أنَّ حكاية التسميم مختلَقةٌ، وكاذِبة. [2]

لم يغفر المختار لأمّ عوض هذه الزَلَّة، فقد أشاع عنها أنها تمارس الشعوذة، وأنها ساحِرة. وفي الأثناء يتعرَّض عنان لمحاولة اغتيال بعيارٍ ناري، إلا أنه نجا منه كعهْدِهِ في النجاةِ من محاولاتٍ عدَّة[3].

في لبنان

ونتيجة الإحساس بالضيق، وشعوره بما في داخله من دوافع تتوغَّلُ في ثناياه، وتدعوه لمغادرة البلدة، قرر الذهاب إلى لبنان. وقد أشارتْ عليه بهذا أمّ عوض [4]. وفيما كان القوم منشغلين بغسان الأعرج ، الذي وُجدَتْ جثته أمام المسجد، وتبين أنه ماتَ مسمومًا، غادر عنان متوجّهًا إلى بيروت، فيما كانت الآراءُ

1.عابرو حريق، ص 63

2.المصدر السابق، ص 66

3.المصدر السابق، ص 69

4.المصدر السابق، ص 71

تجمع على أنَّ الأعرج قُتل في جريمةٍ مدبَّرة لها علاقةٌ بمحاولة الاعتداء على عنان [1].

القوشان: إشكالية الهوية

وثمة تحوُّلٌ آخر بُني على حافز مُهِّد له، وهو تمكُّن المختار من العثور على صكّ الملكية، وتزويره صكا آخر عوضًا عنه. لذا هُرع هو وزمرته: الشيخ عارف، وأبو كمال، إلى أمّ عوض، وأطلعوها على الصكّ الجديد المزوَّر، وأمهلها المختار شهرًا واحدًا كيْ تُخلي البيت. [2] وفي الأثناء اكتسب عنانُ لقبًا جديدًا في لبنان، وهو لقب [زقاقي] بمعنى أنه ابن شوارع [3] وقيل له: هنيك ناضل. في وطنك.. مش هون.[4] ويداهمه الشعور بالإحباط، فهو كمن يظن أنه كلما بلغ مبتغاهُ، تدحرج من جديد إلى أسفل الجبل، ليبدأ ثانية من الصِفْر. أزعجه كثيرًا السؤال من أنت؟ ومَنْ تكون؟ وأثار ذلك في نفسه أسئلةً جارحةً، وضعتهُ وجهًا لوجه أمام إشكالية الهوية. فقرّر المغادرة إلى إسبانيا، وفي ذهنه ما قام به أبو فيكتور. وسرعانَ ما تلقَّتْ أمّ عوض عن طريق الحكيم خبر اختفاء عنان، جرى ذلك قُبيْلَ العثور على جثة الحكيم نفسهِ مُنْتحرًا في عيادته. مع أنَّ الدلائل تنْفي حكاية الانتحار هذه، وترجّح أنْ يكونَ الأمرُ جريمةً مدبرةً بليلٍ، ووراءَها المختار وزمرته.

رصاصة واحدة لا تكفي

أحدثت الإشاعات التي روَّجها المختار، والإمام، عن شعوذة أمّ عوض تأثيرًا كبيرًا، وفاجعًا، لدى الأهالي، الذين وجدوا في تصرُّفاتها الخاصّة بضريح الولي الصالح زكريا تأكيدًا لتلك المزاعم، فأجمعوا، على الرغم من أنهم مختلفون، على أنها

1.عابرو طريق، ص 73

2. المصدر السابق، ص 75

3.السابق، ص 78

4.السابق، ص 79

ساحِرة، مشعوذة. وتستحقّ، لا الرَجْم فحسب، بل القتلَ في مشهدٍ يشارك فيه الجميعُ عدا الساردة، وبلال، وبالطبع عنان، الذي لا يدري أحدٌ أينَ هو. وأخيرًا قُتلت أمّ عوض، التي لطالما وُلد الكثير من أبناء البلدة على يديها، قتلت بعَشْرة أعيرة نارية، واحدًا تلوَ الآخر، لأنَّ رصاصة واحدة لا تكفي. واستولى المختار على البيت، وتنتهي مأساةُ أمّ عوض بظهور (حياة) فيما يشبه الكابوس الذي لم تفق منه الساردة إلا وفي رؤاها الحريق نفسه الذي وردت الإشارة إليه في مستهلِّ الحكاية، مع صفائح الوقود، وأعواد الثقاب، وصرير الأبواب، والنتوءات البارزة في الظهر، والكتف، والجهة اليسرى من الصدر، والتمتمات، في إيحاءٍ غير مباشر بمغادرة البلدة [1] .

واقع سحري:

وهذه الرواية - عابرو حريق - تختلفُ عن رواية المؤلفة (آخر القلاع) في توجُّهها لواقع شبه سحري، أو خرافي، يختزن الكثير من المعتقدات، والأفكار ذات الطابع الشعبي. فالوليّ الصالح زكريا، والغولة، والمختار، والشيخ عارف إمام الجامع، والحكيم، وغسّان الأعرج، والبستان، والقوشان، وما شابه ذلك، وشاكله، لا يجتمع في هذه الحكاية إلا ليضفي عليها هذا اللون المحلي، الذي يغلب على بلدةٍ أو قريةٍ، في فلسطين. لكن الزمن الذي تقع فيه وتجري هذه الحوادثُ، والمروياتُ، هو زمن ما بعد 1967 لا قبله، بدليل واضح، وهو توجه (عنان) بعد أن ضاق ذرعا بـ «ابن ازدهار» والتشكيك في نسبه، وإحساسه بالعار في بلدة يجمع الأهالي فيها على أنه إنْ لم يكُنْ لقيطًا، فهو شِبْهُ لقيط، يغادِرُ إلى لبنان، ويحاول أن ينسلخ عما علِقَ به من خطيئةٍ، وعار، ويتحول إلى مناضل يزهو بشيء غير قليل من الفَخار، ليصطدم بعدد من العقبات؛ أولاها أن من واجبه

1.عابرو حريق، ص 113

النضال في وطنه لا في غيره، وأن عليه - ثانيا - أن يتحقق من هويته، فهل هو فلسطيني، أم لا.

قيادات

بقية المتواليات السردية تُلقي الضوء على القيادات التقليدية التي ابْتُلِيَ بها الناس في فلسطين. ويمثل المختار أحد رموز هذه القيادة التقليدية المتخاذلة، والمتعفِّنة. فعلى الرغم من لصوقه بالشيوعيين، يحافظ على علاقته الحميمة بالشيخ عارف، ويوظّفه لصالح مخططاته الرامية لاستغلال الأهالي أولا، والسيطرة على بيت أم عوض ثانيًا، يضافُ إلى ذلك الخلاص من خصومه في البلد، واحدًا تلوَ الآخر. فالشيخ عارف الذي يُصدر الفتاوى يُضفي على موبقات المختار طابع السحر الحلال، ويؤكد تسميم المياه، وحكاية اللصوص، والبستان، ويُشَرْعِنُ فكرة الخلاص من أمّ عوض لكونها ساحرةً، أو مُشعْوذةً. ولا يُنكر أنّ القواشين التي تثبت ملكية المختار لبيت أمّ عوض قواشين حقيقية، وغير مزوَّرة، وتثبتُ ملكية البيت للمختار لا لأمّ عوض. وإلى جانب المختار الرمز، والإمام، ثمة شخصيات أخرى منهم أبو كمال، الذي يستغل السكان، ويبيعهم ماء الشرب منتهزًا الدعوات التي تحذرهم من تسميم مياه الخزان. ويتظاهر بالتقوى، والورع، إذ يحرم ابنه كمال من الميراث لاعتناقه ديانة أخرى، والزواج من امرأة إسبانية. وهذه القيادة تعتمدُ على أفكار، ومُعتقدات، لا أساس لها، كإقناع الناس بوجود الغولة التي أخذت (حياة) وأخذت إزدهار أيضًا. وأنّ حارس البستان رآها حين تمثلت له رأْيَ العين.

وهذه البلدة تشبه بلدات كثيرة، وقرى أكثر، لا في فلسطين وحدها، بل في غير قليل من البلاد العربية، والأمصار الإسلامية، تذكرُنا بنماذج في مصر، وقفت عندها روايات بعض الكتاب المصريين، وفي روايات أخرى، وقصص قصيرة، نجدُ نماذج منها مثلما هي الحال في أعمال إبراهيم الكوني، والطاهر وطار،

والطيب صالح في عرس الزين، وغيره .. وغيره. على أن الرواية، بصفة عامة، ليست في مستوى روايتها السابقة « آخر القلاع «.

وبهذه الرواية عابرو حرق يصبح للكاتبة ثلاث روايات الأولى منها بعنوان « ولادة الروح « 2015.

---

*للمزيد عن الكاتبة انظر مقالنا في: القدس العربي، لندن، ع 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 2016

فاروق وادي
وعصفور الشمس

صدرت رواية عصفور الشمس لفاروق وادي(1949- 2022) في العام 2007 ولم يثر صدورها إلا القليل من الانتباه. فهي إعادة كتابة لحكاية شعبية في أداء يقربُ بها من الرواية. ولا يتقيد المؤلف فيها بشروط الرواية المعروفة التي نجدها في روايات الكتاب الذين إليهم يعزى ترسيخ هذا الفنّ، وتأصيله، في الأدب العالمي.

فالرواية شيء، والأدب الشعبي الشفوي، أو المدوَّن، شيءٌ آخر. صحيح أن بعض الروائيين النابهين في العالم العربي حاولوا المزج بين التراث القديم، والفن الروائي، في أعمال بأعيانها [1] مثلما هي الحال في ابن فطومة، ومن ليالي ألف ليلة، لنجيب محفوظ. وبعض روايات جمال الغيطاني، ولا سيما الزيني بركات. كذلك بعض أعمال إميل حبيبي، ومنها سداسية الأيام الستة التي هي أقرب للرواية منها للقصص القصيرة. فقد تضمنت قصة عن (جبينة) الراعية التي يتردد اسمها في حكاية شعبية شفوية متداولة في التراث الشعبي. وقد تكرر توظيفها في النثر، والشعر. ومن ذلك رواية " أولاد مزيونة " لغريب عسقلاني. وفاروق وادي في " عصفور الشمس " يختار – فيما يُظن- حكاية شعبية غير متداولة

1.للمزيد انظر محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، ط1، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2002 ص 14- 15

كثيرا . وقد يشكّ القارئ في أن يكون سمع بها. أو يذهب به الظن إلى أنها مزيجٌ من الحكايات أخرجها المؤلف مَخْرجا جديدًا.

فالفتاة (رهيفة) فتاة قروية فاتنة الجمال جدًا، تعودت منذ الصغر على تأمل محاسنها في مرآة مسحورة أحضرتها جدتها التركية ثريّا معها من إحدى المدن القريبة من إسطمبول. ووالدها سلمان تزوّج من (بنورة) بنت محفوظ بعد وفاة أمّها بعشر سنين على الأقل. وهي تكبرها بعامين اثنين لا غير. ولشدة جمال (رهيفة) تدبّ في نفسها نارُ الغيرة [1]. فتحثّ زوجها سلمان على إرسال (رهيفة) إلى القدس حيث أخواها فتعيش معهما على الحلوة والمُرّة. لكن سلمان يرفض هذا الاقتراح رفضا حاسمًا، حِرصًا على الفتاة، وعلى سمعة العائلة، بَيْد أنه يسمح لبنّورة ببيع المرآة التي تطيل (رهيفة) النظر فيها، ورؤية ما هي عليه من الحُسْن، فتزداد غرورًا. وتقوم بنّورة ببيع المرآة لمشترٍ متجوّل شغوف بالأنتيكات. وهذا المشتري لا يقتنع القارئ بطريقة ظهوره، فما إن سمح لها سلمان ببيع المرآة حتى ظهر، وحضر حضورًا سريعًا مفاجئًا، كأنّه كان يتنصَّت لما دار بينهما من حديث. ودفع بها ثمنًا خياليًا لا يمكن لأيّ قارئ أن يتوقعه، لا سيما في الظروف الزمنية التي جرت فيها وقائع الحكاية، وهي عشرينات القرن الماضي [2]. هذا مع أنَّ المشتري لا يعلم بما تنطوي عليه المرآة من قيمة، ولا بما فيها من السِحْر. وها هنا تبرز النزعة الشعبية الغرائبية في حكاية "عُصفور الشمس".

فبعد أن غادر الغريبُ الذي اشترى المرآة بثمَنٍ غير بَخْس، انبثقت منها شمسٌ وهّاجة، وخطفت البصر من عيني (بنّورة). وكان آخر ما رأته بهما كتلة

1.وادي، فاروق، عصفور الشمس، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007 ص51

2.عصفور الشمس، ص 52

هائلة من عصافير النار تحلق في الفضاء بعد أن فرَّت من المرآة " [1] .

وهذا الملمح الغرائبي في الحكاية غابَ تأثيرهُ فيما بعد، إلا من الإشارة المتكرّرة إلى فقدان (بنورة) النظر، والتنقُّل بها من طبيب لآخر، ومن مستشفىً إلى مستشفى، بلا فائدة.

أما رهيفة، فقد وقع بصرُ مسعود عليها، وسلبت عقله بجمالها الخارق، على الرغم من أن هذا الرجل، الذي بولغ في وصف قدراته الجنسية مبالغةً تصل حد الإسفاف [2]، لا يعاني من الكبت؛ إذ يذكر لنا الرواي مرارًا تردُّده الدائم على بائعات الهوى في يافا وحيفا وبيروت. ونشاطه في هذا السياق فاض على آخرين، فكان يصطحب أبناءَ عمومته للمواخير. ولو أنّ القارئ يشك في هذا الجانب كون ظاهرة بائعات الهوى في المجتمع الفلسطيني ليستْ ظاهرةً مُنْتشرة.

ومسعود، ما إنْ رأى (رهيفة) أو ما إن كاد يراها، بكلمة أدقّ، حتى قرّر أنْ يتزوجها. ولأنه دميم الخلقة، بشع الوجه، أشبه بالقِرَدةِ منه بالآدميّين، فقد كان على ثقة من أنها سترفض الزواج منه. فاحتال لذلك بأن اتفق مع ابن عمه شوقي، وهو شابٌ وَسيمُ، على التقدُّم لخطبتها باسْمِه. والاتفاق مع أبيها سلمان، وإغرائه بالمَهْر الكبير. وقيمته 400 ليرة ذهبية تُدفع منها مائة عند كتابة الكتاب، والبقية عند ليلة الدخلة. فشوقي في هذه الحال هو العريس في عقد النكاح الشفوي، لكنّ مسعودًا هو الذي يُكتب اسمه، ويُدوَّن في العقد. على أن المؤلف نَسيَ أنْ يذكر لنا موقف المأذون الشرعي من هذه المؤامرة، وكيف قَبِلَ أنْ يُسجِّل اسم مسعود في مؤقع الزوج، لا شوقي، وهل اطلع على ما يثبت هوية الخطيب، أم لـمْ يطلع، مثلما يقتضي العـرف، وتـوجبُ العـادة. وكان من المتوقع أنْ يبْذل

1.عصفور الشمس، ص 55

2.المصدر السابق،ص 58

مسعود قصاراهُ لرشوة المأذون كي يفعل هذا. لكن الراوي، ومن خلفه المؤلف، تناسيا هذا، مما ترك فجوةً في الموقف تحتاج لما يُذكر تلافيا لهذا الاضطراب المخلّ في النسق. ويستمرُّ شوقي في تمثيل دوْر العريس إلى أنْ حان الزفاف. وفي ليلة الدخلة توارى ليظهر مسعود بدلا منه، وهذا كله متَّفقٌ عليه، و(رهيفة) هي الوحيدة التي، من بين الجميع، لا تعلم، ولا تدري باتفاق كهذا.

منزلقات

ولكن المؤلفَ، بغرائبيةِ هذه الحيلة، وقع في عددٍ منَ المنزلقات. ففي القرْية يعرف الناس بعضُهم بعضًا، والخبَرُ ينتشر بينهم انتشار النار في الهشيم. فكيف يمكن أن تنطلي هذه الخدعة على الناس، ولا تتنبّه لها (رهيفة) أو أيّ شخص آخر، فيخبرها بذلك، ولو من باب المناكدة. فمسعود، مثلما يُعلمنا الراوي، شخصٌ مكروهٌ في البلدة، وجلُّ الناس يعرفون عيوبه، ويتندَّرون بمثالبة، مثلما يتندَّرون بقبحه، حتى زعموا أنه ليس من صلب أبيه فؤاد الراجح، وإنما هو من صُلب الجان، أو الشيطان، على أحْسنِ تَقْدير. فضلا عن أنّ مثل هذه الخدعة لا يمكن أن يلجأ إليها مسعود إلا إذا كان رجلا غيْر عاقل، فطال الزمن، أم قصُرَ، ستكتشف (رهيفة) ويكتشفُ الآخرون الحقيقة، فما فائدة الزواج من امرأة ترفُض الاقترانَ به، مثلما ترْفضُه أيّ امرأةٍ أخرى؟ علاوة على أنّ المهر الذي جرى الاتفاق عليه غالى فيه المؤلفُ مغالاةً شديدة. ففي عشرينات القرن الماضي لم يكن يتجاوز مهر العروس، إذا كانت تجمع بين الحسن، والمَنْبت الكريم، الثلاث ذهبات، أو الأربع. و(رهيفة) على الرغم من أنها يتوافر لديها الجمال، إلا أن والدها من الفقراء المهمّشين. وفي عشرينات القرن الماضي نشكُّ في أن يجد الباحث في فلسطين كلها مثل هذا المبلغ من الذهب الخالص.

ما لا يُصدَّقُ

أما مبالغاتُ الكاتب في وصف مسعود بالثراء الفاحِش، فتجعلنا نتساءل: من أين تأتّى له هذا الغِنى؟ فأبوه أقرب إلى الفقر منه إلى اليسار. بدليل أنه يعتاش على السَمْسَرة، والتوسط بين البائع والمشتري. وهذه الحرفة لا تُدرُّ على من يمتهنها الكثير. فالفقرُ، هو الذي أحوج فؤاد الراجح لاعتماده السمسرة وسيلة لاكتساب الرزق. وما يذكرهُ عن أخلاق مسعود، وعن قدراته الجنسيّة، وهي قدرات بيولوجية لها حدودها الطبيعية التي لا يختلف فيها اثنان، بولغَ به كثيرًا. حتى ليذكر أنّ قوته تلك تفوق عشرين رجلا مجتمعين[1]. وما أورده من أقوال منسوبة لبعض البغايا ممّن عاشرهنّ، وعاشرْنَه، ادعاءاتٌ، ومزاعمُ، مبالغ بها كثيرًا، وإسْفافٌ لا يحسُن بالكاتب الانحدار إليه في رواية يختَتِمُها بذكر الشيخ عز الدين القسّام، وأبطال الثلاثاء الحمراء: عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي. وهم من شهداء ثورة البُراق عام 1929 وحكايتهم معروفة، ولا داعي لإقحامها في هذا السياق. تضاف إلى هذه (المطبَّات) ما رواه السارد عن الجارية الأفريقية (فلانة) التي زوّجها فؤاد الراجح لسعد الله، وهو عابرُ سبيلٍ أُعجب بشجاعته، وما طُبع عليه من إخلاص.

نقلة مفاجئة

وفي هذا السياق ينتقل بنا الرواي انتقالا مفاجِئًا من غير توطئة، ولا تمهيد، لما يجري في القدس. أي نفخ اليهود في الأبواق أمام حائط البراق. وإذا بالدنيا تقوم ولا تقعد [2]. ولا مسوّغ لذكر هذا الهياج ما دام التفكير الذي يشغل السارد هو الدوافع الجنسية المحمومة لدى كل من مسعود، وأبناء عمومته، ووالده

1.عصفور الشمس، ص 70

2.المصدر السابق، ص 91

وسعد الله الذي فُتن بالجارية، فتخيلها كتلة من الإثارة. أما الحُجَّة التي أراد بها المؤلف تبرير الإشارة لثورة البراق، فلأن سلمان والد (رهيفة) جاء بزوجته بتّورة ليعرضها على طبيب عيون وُصف له في القدس. وليأخذ برأي ابنيْهِ المقيمين فيها بخطبة (رهيفة) من مسعود على ما تمّ في الاتفاق، وفقا لعقد النكاح الذي كُتب بصفة نهائية. وهذا (مَطبٌ) آخر وقع فيه الراوي ومن خلفه المؤلف. إذ ما قيمة المشورة، وأخذ موافقة الأبناء، ما دام الكتابُ قد كُتب. على أنّ المفاجأة التي لا تُرضي القارئ هي موافقة الأبناء على هذا الصهر الكريه موافقةً جماعيّةً دون مناقشة، ولو من باب المناكفة، إلا إذا كانوا يستجيبون للأمور استجابة القطيع.

وفي ليلة الدخلة يتلو مسعودٌ على رهيفة عقد النكاح، وأنَّ اسم الزوج مسعود لا شوقي.[1] على أن القارئ لا يدري ما العلاقة بين ما يتلوه مسعود على مسامع العروس، وذِكر الكاتب صوت الشيخ عز الدين القسام في جامع الاستقلال بحيفا يدوي مجلجلا كنَسْر جَسورٍ مباركا استشهاد أبطال الثلاثاء الحمراء عطا الزير، وفؤاد حجازي، ومحمد جمجوم [2]. إذ يبدو أن الكاتب لامَ نفسَه على هذا السرد المتَّصل الذي لا مكان فيه، ولا مؤضع، لقضية فلسطين سوى التنبيه بإشارة عابرة لثورة البراق 1929. وهذه الإشارة للشيخ جاءت في الموقع غير المناسب، وكأنها من باب رفْع العَتَب، لا أكثر؛ لأن الخطاب الذي قصدهُ المؤلف كان عام 1929 أي قبل ستّ سنين من إعدام الأبطال الثلاثة المذكورين(أعدموا في 17 /6 / 1930). وهذا يوحي للقارئ بما وقع فيه المؤلف من خلط بين الثورتين[3].

1.عصفور الشمس، ص 104

2.المصدر السابق، ص 112

3.السابق، ص ص113- 114

علاوةً على أن زفاف مسعود ورهيفة كان قد جرى في العام 1929 أو بعده بأشهر لا بسبع سنين أوستّ.

يعودُ المؤلف بنا إلى الحبْل الذي من (مَسَدٍ) وكان قد ذكره في مُفْتتح الرواية، فبه تنتقم (رهيفة) من الرجال الذين تآمروا عليها، وزوَّجوها من مسعود. وفي هذا الفصل الكثير من الاستخفاف بالقارئ، لأنه ترك لرهيفة أن تفعل بالرجال الأربعة ما لا يفعله بطل فيلم كاوبوي بخصومه الذين لا يُبدون غير الاسْتسلام، والخضوع. فعلى فرَض أنها نجحَتْ في تعرية شوقي، وتقييدهِ بالحبْل، ومغادرته بعد أن أخفت ملابسَه، مما اضطرهُ للعودة عاريا كيوم ولدته أمه. فكيف تسَنّى لها أن تفعل الشيء نفسه في الثاني، والثالث، مع أن الأخبار في القرى تجري من موقع لآخر، وتنتقل من فم لفم، وهذا قمينٌ بتنبيه الثلاثة لما ينتظرهم من رهيفة فيحذَرون. كذلك انتقامُها من مسعود هو الآخر جرى دونَ مراعاةٍ من الكاتب لما يمكن أنْ يوقظه، ويُحذّرهُ مما يمكن أن تُقدم عليه ما دامتْ فعلت ما فعلته بأبناء عمومته.

وما ذكره الراوي عن عصابة الكفّ الأسود يضيفُ شيئا آخر لما يؤكد خلطه بين مجريات قضية فلسطين. فهذه العُصابة ظهرت عام 1937 ولذا فإن شيوع الأقوال عن أن الذين يفتكون بالرجال الذين فتكت بهم رهيفة هم من عصابة الكف الأسود، غير صحيح، لأنّ هذه العصابة لم تكن قد وُجِدَت بعد. علاوةً على أن نشاطها ظل مقتصرًا على تصفية العملاء الإسرائيليين، والإنجليز، وسماسِرَة الأراضي، لا من هم مثل مسعود.

والراوي لا يقولُ لنا كيف كانتْ رهيفة تهتدي لكل من هؤلاء الرجال الذين نجحَتْ في الانتقام منهم، جاعلة منهم عِبْرة لمنْ يَعْتبر. وهذا في الواقع شيءٌ قلما يتنبّه له مؤلفو الرواية، وهو أنَّ كل شيء فيها ينبغي أنْ يُحسب بدقَّة. فيُذكر سببه، وكيف حدث، وما الشيء الذي ساعد، أو أعاق حدوثه. أما أنْ تُروى

الأمورُ كما يقول بعبارته المجتزأة: " وسرعانَ ما كرَّت حبّاتُ المسبحة " [1] فهذا لا يعني لنا إلا شيئا واحدًا، هو الفهم الخاطئ للنسق الروائي. فقصارى ما يفعله الكاتب أنْ يقدمَ لنا حكاية طريفة، ومشوقة، دون إيقاع يضبط المتواليات السردية ضبطا يُراعي فيه قانوني الاحتمال والضرورة. وفي هذه الحال يمكن أنْ تعدّ "عصفور النار" حكاية من الأدب الشعبي، لا رواية بالمعنى الاصْطلاحي لهذا الفنّ.

1.عصفور الشمس، ص 123

مجانين بيت لحم

عرض حال يفتقر لشروط الرواية

من المؤسف أن نجد كثيرا ممن يطلق عليهم من باب التسامح مصطلح روائيين لا يترددون بين الحين والآخر في الخوض خوضا عميقا في مستنقع التجريب، فينشرون نتائج ذلك على هيئة روايات وهي ليست كذلك. وعندما يفرغ المرء من قراءة الكتاب الموسوم بعنوان «مجانين بيت لحم» (نوفل، بيروت، ط2، 2015) وتجاوزه لما هو مطبوع على الغلاف الأنيق، من لفظ صريح يحدد جنس الكتاب، وينسبه حصرا لجنس الرواية، وبتجاوزه أيضا لما ذكر من أن الكتاب فاز بجائزة الشيخ زايد ـ فئة الآداب لعام 2015 يجد نفسه مضطرا للتساؤل الآتي: ما الذي يميز الرواية عن غيرها من الفنون الأدبية السردية أو المقالية؟ وهل كل ما يروى هو بالضرورة رواية؟ دعونا- إذن- نعرف الرواية، ونتذكر بعض ما يتصف به الجنس الروائي من مزايا تجعل منه فنا أدبيا مستقلا عن غيره من فنون الأدب عامة، وعن القصص بوجه خاص.

ثمة من يعرّفون الرواية تعريفات شتى، بعضها يناقض بعضها الآخر، أو يختلف معه يسير الاختلاف. بيد أننا ننطلق في هذه الوجازة من تعريف نرى فيه تعريفا جامعا مانعا وفقا لفلاسفة المنطق، وما يذهبون إليه، ويلهجون فيه، فالرواية في رأينا حدثٌ، أو أحداث متخيلة تقع لمجموعة من الشخوص المتخيلة في مدة زمنية ما، وفي فضاء مكاني ما، في الحدود التي تسمح بها أداة التعبير، وهي اللغة.

وقد يحتاج هذا التعريف الذي نجده في كتاب « الزمن والرواية « لمندلاو، إلى شرط آخر، وقيد لا بد من التنويه به، والتنبيه اليه، وهو وجود الراوي، الذي يروي الأحـداث ملتزما بمبدأ أن لكل حدث جديد سببا، فالأحـداث التي تقع فجأة دون تفسير أو تعليل واضـح يجـعل منها وقائع زائفة، تتأبى على قانـوني الاحتمال والضرورة، لذا تضعف الرواية، وتجعلها قريبة قربا شديدا من (السواليف) التي يتداولها عامة الناس في مناسبات عديدة يحلو فيها السهر والسمر.

الراوي هو المؤلف

ومن يقرأ «مجانين بيت لحم» لا يُنكر أن في هذا الكتاب السردي راويا، وأن هذا الراوي ـ في كثير من الأحيان- هو المؤلف نفسه، وهو يذكر ذلك صراحة غير مرة بعبارات من مثل: وأنا أحضر لكتابة هذه الرواية، و.. وأنا أروي هذا بصفتي راويا كلي المعرفة.. ولا يعرف شيئا عما يرويه.. إلخ.. ولكن هذا الراوي يحاول كتابة هذه الرواية مستعينا برواة آخرين، بعض هؤلاء الرواة من أصدقاء الراوي المؤلف، وبعضهم من المؤرخين، أو مؤلفي كتب المذكرات والصحافيين.. الذين استعان بما كتبوه، ودونوه، عن بعض المجريات، وضمنه نسيج الأخبار التي جمعها، وكدسها في فصول الكتاب التي يقارب عددها الأربعين فصلا، بعضها في أقل من صفحة واحدة.

ولا ننكر أن وقائع ما يجري لشخوص هذا الكتاب، وهم بعدد أكبر بكثير من عدد الفصول، تجري في فضاء مكانيّ بؤرته مخيم الدهيشة، ولكن الأمكنة التي تحيط به تؤدي دور البيئة الحاضنة لكثير من هاتيك الحوادث، وما يتعلق بها من تفاصيل، ولا سيما بيت لحم، والخليل، والطريق فيما بينهما، وطريق القدس بيت لحم و.. و.. إلخ. وقد تقع بعض المجريات في بيروت، ودمشق، وفي حيفا،

ويافا، وغيرها كعمان في الأردن. وذلك لما يتطلبه قدوم بعض الأشخاص، أو سفرهم، أو تجوالهم، بين مدن شتى، وأماكن متعددة، ومتفرقة.

وعلى هذا الصعيد لا ننكر أيضا أن المؤلف- أسامة العيسة- قد ساق لنا أحداثا يقع أقدمها في القرن التاسع عشر كقدوم إبراهيم باشا في حملته العسكرية على بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة سنة 1831 وبعد ذلك زيارة غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا للديار الفلسطينية المقدسة نحو عام 1898إلا أن هذه السلسلة من المشاهد، والشخصيات، والحكايات المجزأة، التي يوحدها أنها جميعا تروي بعض غرائب المجانين، أو العقلاء الذين لا يستطيع الراوي التفريق بينهم وبين المجانين، تفتقر للحد الأدنى من الترابط، والتماسُك. فليس في الكتاب السردي هذا حدث مركزي تجتمع حوله وتدور المتواليات السردية الكثيرة جدا، التي تروي وقائع جرت في المجمل في نحو قرنين من الزمان. بعضها أصبح من التاريخ المحض، كحملة إبراهيم باشا، وزيارة غليوم الثاني، وبعضها آنيٌ، كالحديث عن وزارة سلام فياض، أو « بوتين مرَّ من هنا «، « أوالروس قادمون.«

لا رواية بلا حكاية

فالقارئ لا يستطيع أن يجيب عن سؤال افتراضي من مثل: ما الذي يريد المؤلف قوله في هذه الرواية؟ أو ما الحكاية التي استحالتْ في هذا اللون من السرد شبه القصصي لنوع أدبيّ يسمى رواية؟ وذلك لو أنه حاول أن يلخص أحداث الكتاب فيما يمكن تسميته موجزا لحكايةٍ ما لما استطاع. ومنتهى ما يستطيع قوله هو أن هذا الكتاب لا يتعدى كونه « عرضَ حال» لوطن دمَّره المحتلون، ووقع المفاوضون على بيْع ما تبقى منه، فهو إذا جاز التعبيرُ يروي نتفا ومتتاليات عن الشأن الفلسطيني بعضه أقرب إلى التنكيت، وبعضه أقرب إلى التبكيت، يجمع فيه بين الجدّ، والهزْل، على طريقة كتّاب المقامات ممن يدفعون بهذا الأسلوب الساخر السأم عن القارئ

وعلى أي حالٍ، إذا أريد بالشخصيات في هذا الكتاب أن تكون شخصيات روائية كتلك الشخصيات المشهورة التي يعددها القارئ مما يتذكره من أبطال الروايات العالمية؛ كإيما في مدام بوفاري لفلوبير، أو ديفيد كوبرفيلد، أو أوليفر تويست، لديكنز، أو كمال عبد الجواد في ثلاثية محفوظ، أو ديمتري في الأخوة كارامازوف لدستويفسكي، أو سعيد مهران في اللص والكلاب رائعة نجيب محفوظ، أو أبي النحس في رائعة إميل حبيبي، أو سراب عفان، ووليد مسعود، في روايتي جبرا، فإن هذا يبدو مضحكا باعثا على السخرية. فشخصيات هذا الكتاب بدءا بشخصية إبراهيم باشا، وغليوم الثاني، ومرورا بجبرا إبراهيم جبرا، وهشام شرابي، ووالد الراوي الذي جعل من سروال علما في حزيران 1967، ومريم العسلينية، وسلوم، وسليمة، وأبي عصري، والعبد علوي، وبهيجة صبري، إلى آخر هذا الألبوم المتعدد الصفحات، المملوء بالصور الفوتوغرافية... شخصيات ليست روائية.. ولا تربطها علاقاتٌ توافق، أو صراع، كالتي نشهدها في الحياة اليومية، التي تعبر عنها الروايات، والقصص في العادة.

شبحية الشخوص

فالكاتب العيسة يتناول في فصل من الفصول جنون إحدى الشخصيات، ثم ينتقل ليحدثنا عن مجنون آخر، أو مجنونة أخرى، في فصل تال، وهكذا تختفي الشخوص، فلا يعود إلى ذكرها مرة أخرى، باستثناءات قليلة جدا لا تترك أثرا في الحكاية، مما يؤكد أيضا غياب الترابط بين متواليات هذا الكتاب السردي. والإطار الخارجي لها هو الدهيشة، وهو إطار لا ينمُّ عن تفاعل المواقف، والشخوص فيما بينها تفاعلا يؤدي لشيء من التماسك النصي.

فلو حذف القارئ من الكتاب عددا من الفصول متتابعة، أو متفرقة، ثم أعاد قراءته، فمن المؤكد أنه لن يحسَّ بأي فرق بين النسختين. فهو على سبيل المثال، وليس الحصر، يروي لنا بعض مظاهر الجنون لسيدة اسمها أميرة علاء

الدين محمد في الفصل الرابع والعشرين [1] وهي في رأيه قصة نموذجية تتعلق بالنساء حصرا [2] وهذا لا مرية فيه، ولا خلاف، ولكن ما علاقة هذه القصة بحكاية شفيقة المصري المجنونة في الفصل الخامس والعشرين [3] وما علاقة جنون شفيقة هذه بجنون رفقة علي، التي جاءت إلى مخيم الدهيشة من غزة 1967 لتزيد عدد المجانين في المخيم واحدا؟ [4] ويستطيع القارئ أن يواصل تصفُّح هذا الكتاب الساخر عن رجال، ونساء، هم في رأي الراوي مجانين على طريقة الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري المتوفى سنة 406هـ في كتابه «عقلاء المجانين" .

بيد أن المؤلـف أسامة العيسة زاد على ابن حبيب هذا، فأضاف إلى دائرة السؤال شخصياتٍ سياسيَّة من مثل: (الختيار) وهو يُكني بهذا اللفظ عن ياسر عرفات، ومن الروايات التي يسوقها عنه يتضح أنه يعدهُ أحد المجانين، أو لا يختلف عنهم على الأقل، فتصرفاته في جبل أنطون في بيت لحم، وقصر الضيافة، والمستشفى، ودير المجانين، لا تختلف عن تصرفات أي من المجانين الذين أفاض في ذكر جنونهم المطبق. كذلك حديثه عن شخصيات أخرى مثل الأقرع، وهو بلا ريب يعني بهذا اللقب أحمد قريع (ابو العلاء) وسلام فياض، وأبي مازن، وآخرين.

فالكتاب بهذا المعنى "عرضُ حالٍ" لا أكثر، وطابعه الساخر، الهزلي، قد يشد القارئ شدا، لكنه يفتقر مع ذلك لشروط النسق الروائي*.

---

*عن القدس العربي 11 نيسان- إبريل 2018

1.العيسة، أسامة، مجانين بيت لحم، ط2، بيروت، نوفل للنشر، 2015 ص 162

2.المصدر السابق، ص 163

3.السابق، ص 170

4.السابق، ص 174

ليلى الأطرش في «لا تشبه ذاتها»
والبحث عن أفق

في الصفحة ذات الرقم 11 من روايتها « لا تشبه ذاتها « (دار الشروق 2018) تكتب الروائية الراحلة ليلى الأطرش(1948- 2021) على لسان (حبيبة) بطلة الرواية، والساردة الوحيدة فيها، ما يمكن أن نعده ملخصا للحكاية، تقول : « أنا حبيبة ماء العين أرسلان الغلزاني، قدري الهجرة، أحس بأنني من مكانٍ لا أعرف. ولدتُ في بلد، وتشكل وعيي في بلد، وأبدأ معك في بلدٍ لم يخطر على بال. لندن الوعي. وما قبلها ذكرياتٌ مختلطة عن وطن بعيدٍ نسجته من تناثر القصص، ومن بقايا الأحلام، والرؤى، ومن شاشاتٍ لا يغيب عن أخبارها الوطن."

الطريقُ إلى لندن

فقد كانت ولادة حبيبة ماء العين في أفغانستان، في مزار شريف، وعندما قام مجاهدو طالبان بما قاموا به، ونشروا الرعب في هرات، ومزار شريف، وقندهار، وتورا بورا، وكابول، وغيرها، وجد أرسلان الغلزاني – السفير السابق- نفسه مضطرًا لترك البلاد، والهجرة قسرًا إلى لندن مع افراد عائلته، بمن فيهم الزوجة (هانية) التي تزعم أنها من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب، ومُهاب، وفردوس، وعالم، وحبيبة، وهم أولاده. وقد تقلبت الأقدار بهذه الأسرة لكنها بفضل ما كانت تتمتع به من ثروة استطاعت أن تواصل حياتها في لندن، وأن يحقق أفرادها نجاحاتٍ في المجالات التي اختاروها. فمهاب البِكْر تزوج من حفيدة الملك الأفغاني الأسبق ظاهر شاه، واستحقَّ لقب أوناسيس الغلزوي، وفردوس تزوجت من الأمير رضا شاه، و(عالِم) هو الآخر حقق نجاحًا في مجالات عدة

منها الموسيقى[1]، وحبيبة درست الطب، وتدربت بوساطة سارة في عيادة الدكتور جونسون[2]. وفي تلك العيادة قابلت لأول مرة منذر الشُرَفا، وهو فلسطيني قادم من القدس. كان أبوه وأمه قد لجأا إلى الأردن بعد الاحتلال عام 1948 ثم وجد عملا مربحا في الخليج، واستطاع أن يدخر من ذلك العمل ما يعد ثروة، وتمكن من تدريس ابنيه هيام، ومنذر، في أميركا. وقد أدى إعجابه بالفتاة، وهيامه بها، إلى التقدم خاطبًا فوافق والدها بلا تحفظ، غير مبالٍ بما لدى الأم من تردُّد.

انثيال الذاكرة

ومثلما جاء في الاقتباس، تظل حكاية حبيبة هذه تدور حول علاقتها بمنذر الذي تخلى عنها في نهاية المطاف، واستسلم للمقامرة، وتخلى لها عن شركة المواد الزراعية. وانتهت علاقتهما بالطلاق. وهذه العلاقة المتوترة بين منذر الفلسطيني وحبيبة الأفغانية، ليست هي موضوع الرواية، ذلك لأن الطبيبة المتخصّصة في الأمراض الجلدية ظهرت لديها أعراضُ السرطان. وأكدت التحاليل أن المرض متقدم، وأنّ عليها أن تخضع للعلاج الكيماوي. وآثرت الانتقال من مستشفى شارينغ كروس بلندن إلى مركز الحسين للسرطان بعمان [3]. وفي الأثناء تنثالُ عليها الذكريات، وكأنها تكتبُ رواية تخاطِبُ فيها طليقها منذرًا، راويَةً الكثير من الوقائع التي تُذكِّرُه بها، والحوارات التي دارتْ بينهما، أو بينها وبين شخصيات الرواية الأخرى، كاشفة، في الوقت نفسه، عما هو مضمر في هاتيك الحوارات، أو الوقائع. مما يتيح للقارئ- الذي لا يخفى علينا أنه موجود في نسيج الرواية عبر

1.الأطرش، لا تشبه ذاتها، ط1، عمان: دار الشروق،2018 ،ص92

2.لا تشبه ذاتها، ص 107

3.لا تشبه ذاتها، ص ص 101، و220

متابعته لما تتناقله الصحف، والفضائيات – يتيح له الاندماج عن غير قصد بأجواء المعضلة الأفغانية، والمسألة الفلسطينية، على حدٍّ سواء. من عهد الملك الأفغاني ظاهر شاه، مرورا بالملك أمان الله، ثم المرحلة الشيوعية ونجيب الله، وأخيرًا مرحلة طالبان، ثم الرئيس حامد كرزاي. وما يتخلل ذلك بالطبع، ويتقاطع معه، من وقائع تتصل بهذه الشخصية أو تلك.

توليفٌ من شخوص

فشخصيات الرواية متعددة، فإلى جانب أفراد الأسرة: هانية، وفردوس، وحبيبة العين، ومُهاب، وعالِم؛ والأب أرسلان، ثمة شخصيات أخرى؛ سارة وابنها الوحيد عزرا، وأبراهام، وهم من يهود الأفغان، والملا بنيامين الحاخام الأكبر في كنيس كابول[1] صاحب الفكرة التي لا يمل تكرارها، وهي أنَّ البشتون ينحدرون من أصول عبرانية، ومن أسباط بني إسرائيل تحديدًا [2]. فقد جاءوا إلى بخارى- الاسم القديم لأفغانستان- بعد السبي البابلي، وكان ما كان من دخولهم في الإسلام. وعزرا هو الوحيد من هؤلاء الذي هاجر إلى فلسطين، ليكتشف أنه ضحية الإعلام الصهيوني. وقد اسندت إليه الكاتبة دورًا هو الربط بين الخبراء الإسرائيليين في الزراعة في جامعة بن غوريون، وشركة المواد التي يملكها منذر الشرفا وقرينته حبيبة [3] . أي أنه بكلمة أدق من دعاة التطبيع الذي ثبت فشله، وتحقق في نهاية الأمر عندما لم يستفد، لا الشرفا، ولا غيره، من التنسيق والتدريب وتبادل الخبرة، بل تراكمت الخسائر حتى أصيبتْ الشركة، وأصيب منذر نفسه، بالإفلاس. [4]

1.لاتشبه ذاتها، ص 111

2.المصدر السابق، ص 118

3.السابق، ص ص 138- 139

4.السابق، ص181

الزمن المتشظّي

في" لا تشبه ذاتها " يتعرف القارئ على نسق تقوم الكاتبة الضِمْنية – حبيبة - فيه بتوجيه الخطاب لمنذر من فصل لآخر، وهذا الخطاب يعتمد التذكير بمواقف، ووقائع، تشكل المادة الأساس للسرد، وللمتن الحكائي، وهي في هذا لا تلتزم بالتسلسل الزمني، وإنما تترك لتداعيات النفس، وخواطر الروح، التدفق في اتجاهات متعددة، وأحيانا متباعدة في الزمن. فهي، على سبيل المثال، تروي وقائع نزوح عائلة الشرفا من حي الطالبية في القدس عام 1948 في نهاية الرواية [1] مع أن هذا الحدث موقعه الافتراضي قبل ذلك بكثير، إذ كان ينبغي له أن يُروى في اللقاء الأول الذي جمع بين أسرة حبيبة ومنذر الذي قدم إليهم خاطبًا الفتاة، ومثل هذا الحديث حديثه عن دراسته في (سكول أوف إيكونومكس) جاء في موضع متأخر[2]. وتروي حكاية المبيد الحشري لدودة القطن، وصلة هذه المسألة بشركة داو كاميكالز في لندن[3] وهي حكاية قديمة تتصل ببعض ممارسات الجد – لا جد الساردة بل جد أبيها أرسلان- ترويها في الربع الأخير من الرواية [4] مع أنَّ موقعها الافتراضي ينبغي له أن يكون أقدم من هذا، فقد جرى ذلك قبل انهيار الملكية في أفغانستان بزمن غير قصير، وحكاية الرواية تبدأ بعد ظهور حركة طالبان.

قانون التداعي

ويبدو أنَّ المؤلفة تعتمد على قانون سردي تلتزمه في سائر ما ترويه على لسان الكاتبة الضمنية حبيبة، فيما تظنه رواية قابلة للنشر، والترجمة، ولكنها في

1.لا تشبه ذاتها، ص 207

2.المصدر السابق، ص 168

3.المصدر السابق، ص 186، و205

4.السابق، ص 186

الوقت نفسه تريد منها أن تكون درسًا لابنتها الوحيدة (منار) بعد أن تفارق الحياة[1] . فثمة حكاية طويلة، ومتواترة، عن مزار شريف، والحج إلى الجامع الأزرق، وضريح الإمام علي بن أبي طالب، وما أن يُذكر ذلك حتى يندفع الأب راويًا حكاية أو أكثر من حكايات هذا الملف. فلا يمكن أن يكون الإمام قد دفن في ضريحين: أحدهما في النجف مثلا، والآخر في مزار شريف. [2] وارتباطا بهذا تتكرر مواسم الحج إلى الضريح، وهي تتذكر تلك المواسم، وتتذكر ما يرافقها من طقوس، وفي واحد من هذه المواسِم تفرط في وصف إحدى فرق المولوية [3]، وهو وصف يحيل السرد الروائي إلى وصف إثنوغرافي لمجتمع متديّن حتى النُخاع. وشبيه بذلك ما ترويه على لسان الأم (هانية) عن شريط النقشبندي المصري [4] .

ومن الحوار ما ينتهي لسرد متصل عن حكاية أخرى، قد لا تكون صلتها بجسم الحكاية صلةً مباشرة، فقد أخطأ منذر في حضرة الأب أرسلان، وذكر أنه يحفظ بيتين من رباعيات عمر الخيام التي تتغنى بها أم كلثوم؛ فما كان من الغلزاني إلا أن غضب غضبًا شديدًا، وقال أنتم العرب تحفظون الشعر من الأغاني، ومعظمكم لا يعرف من هو عمر الخيام، ثم يروي بغير قليل من التفصيل حكاية الخيام، ونظام المُلْك، وحسن صباح[5]. فالقانون الذي تخضع له آليات السرد - ها هنا- هو أن يذكر جزء من الحدث، فيمثلهذا الجزء مفتاحًا للآخر الذي يتولَى تكمَلة المتبقي. والغريب، الذي يلفت النظر، أن هذه الوقائع التي يجري تذكُّـرها

1.لا تشبه ذاتها، ص 98

2.المصدر السابق،ص 165

3.السابق،ص 158

4.السابق، ص 103

5.السابق، ص ص 170- 177

وقائع فيها من الدقة قدرٌ يجعل من السرد التخييلي سردًا قريبًا من الحقيقة، بل هو الحقيقة. فما رواه الغلزاني عن الخيام وصاحبيه لا يتعارض مع الحقائق التاريخية المعروفة، وما رواه منذر الشرفا عن ظهور التصوف، والدروشة في فلسطين عامة، والقدس بصفة خاصة ،كأنَّه مقتبس من كتاب تاريخي، أو من حوليات أحد المؤرخين كعارف العارف مثلا، أو مصطفى مراد الدباغ.

وما يُسْتدل من هذا أن ليلى الأطرش تبحث في هذه الرواية عن أفق آخر للكتابة تتخطى فيه بيئة المؤلف، وترود بقعة نائية تحتاج المعرفةُ بالتفاصيل المتعلقة بها إلى بحثٍ متقصٍّ، يُضطر فيه المبدع للانتفاع بمرجعيات ومصادر تتوافر فيها المادة الضرورية اللصيقة بالجوانب الثقافية، والاجتماعية، والأخلاقية، والدينية، والمذهبية، لتغدو الكتابة السردية قائمة على المعرفة المكتملة، والغنية، بتلك البقعة، إن كان الأمر على مستوى الجغرافيا، أو على مستوى التاريخ، السياسيَّيْن، وهذا أفق قلَّ ارتياده في رواياتها السابقة التي تقتصر فيها على المكان العربي، أو الفلسطيني، مع ما يتطلبه أحيانًا من طواف الشخوص في لندن أو باريس.

تواتر المرويات

ولا تفتأ الكاتبة تلجأ لما يعرف في السرديات بالتواتُر، وهو أن تروي الحدث، الذي جرى مرة واحدة، مرارًا. فقد تكرر ذكر حبيبة لمجريات المغادرة إلى كابول بعد أن نجح أرسلان في إقناع الملالي بضرورة السفر إلى لندن لعلاج زوجته، والصحيح أن حكاية العلاج لم تكن إلا ذريعة للتمكن من مغادرة البلاد عن طريق الجو، لا عن طريق البر، مثلما يغادر عامة الناس. وروت لنا مرارا قصة الطفلة التي حاولت أن تلهو مع حبيبة على كثب من الدارة التي تحاط بكثير من الحراسة. وروايتها تعتمدُ في الغالب على التقاط أخبار من الفضائيات عما يجري في البلاد، فكان لا بد من استعادة هاتيك المشاهد التي اقتحَم فيها الغوغاءُ

الدارة، وحطَّموا كل شيء؛ اللوحات التي تحمل توقيعات كبار الفنانين العالميين، والأواني الثمينة، وثريات الكريستال والبيانو. . والتحف.. في مشاهد تنم عن أن هذا الفريق من المتطرفين الدينيين يريدون العودة بالبلاد إلى الوراء، بعد أن كان الملك السابق قد شرع في التحديث. تتذكر أيضا صورًا عن هدم المعهد الموسيقي[1] .. مشاهد متكررة، بمضامين مختلفة من حينٍ لآخر، تكرارًا يفسر لنا تفسيرا مقبولا مغزى ما تذكرهُ من أن علاقتها بأفغانستان لا تعدو الذكريات المختلطة عن بلد نسَجَتْه من تناثر القصص، وبقايا الأحلام والرؤى، ومن شاشات لا تغيبُ عنها أخبار الوطن*.

1.لا تشبه ذاتها، ص 224

*يذكر أن هذه الرواية هي التاسعة للمؤلفة، وقد صدرت لها: وتشرق غربا 1988 وامرأة للفصول الخمسة 1990 وليلتان وظل امرأة 1996 وصهيل المسافات 1999 ومرافئ الوهم 2005 ورغبات ذاك الخريف 2010 وأبناء الريح 2012 وأخيرا ترانيم الغواية 2014 .وللمزيد انظر كتابنا : جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش، ط1، عمان: دار الآن(ناشرون) 2016.

مشاة لا يعبرون الطريق

لعاطف أبو سيف

تذكرنا رواية عاطف أبو سيف مشاة لا يعبرون الطريق 2019 بروايته حياة معلقة. التي تتلخص في أن الناس بغزة يقتلون في أي وقت وبأي وسيلة، فالقتل المفاجئ الذي أنهى حياة نعيم بن إبراهيم الورداني الذي كان قد نزح من يافا مع ذويه إلى مخيم بغزة عام 1948 لا يختلف قطعا عن مصير الرجل العجوز الثمانيني الذي قيل إن شاحنة صدمته فدخل على إثر ذلك في غيبوبة. وتطوع بعض الأشخاص من المارة في المكان لإسعافه بنقله للمشفى. أما سائق الشاحنة فقد تابع طريقه مسرعا فيما يبدو هروبا من المسئولية عن الحادث، في تصرف لا أخلاقي، ينمُّ على الاستهتار، واللامبالاة.

ومثلما عوَّدنا عاطف أبو سيف في روايته تلك، يتوخى الإفراط في التفاصيل تارة، وتارة يعزف عن ذلك عزوفا مخلا بالغرض. فبعد أن تجمع الأشخاص: الفاكهاني، والسائق، وابنة المحرر، والممرضة، والفتاة التي تعنى بالمريض الآخر، انضمَّ إليهم الشرطي المسؤول عن ضبط الحوادث في الطوارئ، وأخْذ إفادات الشهود، وكتابة التقارير، وإطلاع المسؤولين. أما الصحفي فقد انضم إليهم متأخرًا، وهو كما هي العادة مندوب جريدة تعنى بأخبار الحوادث.

واللافت أنَّ المؤلف (أبو سيف) طرح على هذا التجمّع سؤالا، وهو ما اسم الرجل الذي صدمته الشاحنة؟أين يقيم؟ ومن هم أقاربه؟ ومن من الناس يمكن أن يتعرف عليه ويدلي بأي معلومات عنه؟ والجواب عن هذه التساؤلات يتلخص في أنه مقطوع من شجرة. لا أقارب، لا معارف، لا جيران، وما إن تمضي على الحادث ساعاتٌ حتى تساور الشرطي الشكوك في الحضور، أو في بعضهم على الأقل. يرتاب في سائق سيارة الأجرة. ويبحث عن كل ما من شأنه أن يثير الريبةِ، مشيرا لعلاقة هذا السائق بجريمة الاعتداء على الثمانيني. ثم يرتاب ببائع الفواكه. ويحاول العثور على كل ما من شأنه أن ينمّ على ضلوع الرجل في هذه الجريمة، لا سيما وأن دكانه تطلّ على موقع الحادثة، ويفترض أنه رأى السائق، ويتكتم مخفيًا علاقته بالجريمة. ولا يخلو الأمر من ريبة تلاحق الصحفي، الذي يسعى هو الآخر، من جهته، لمعرفة جليّة الأمر، والوصول إلى الحقيقة، إرضاءً لرئيس التحرير. ولم يفت الشرطي أن يشكَّ في أن تكون ابنة المحرر، التي وجدت نفسها مصادفة أمام الرجل الملقى على الأرض، وأرادت تقديم المساعدة، ضالعة هي الأخرى في هذه الجريمة التي لا يمكن أن تُقيَّد ضدَّ مجهول.

ثم إنَّ كلا منهم يستبعد التهمة عن نفسه، باتهام غيره، فهو عن طريق الشك بالآخرين يقصي عن نفسه الريبة. فبائع الفاكهة يشك تارة بالصحفي، وطورًا بسائق السيارة. وهذا يشك ببائع الفاكهة تارة، وتارة بالفتاة التي تَبيَّنَ لاحقا أنها ابنة المحرّر، وعلى علاقة بالصحفي ذي الخيال الخصيب الذي يؤلف الأخبار تأليفا متقنا لا تعوزه التفاصيل الدقيقة. وفي النهاية يقع القارئ ضحية تلك الفصول التي تتكرر فيها الأحاديث عن تبادل التهم، والأدوار. مما يُشعر القارئ بالضجَر، ويضطره للمرور عن بعض الصفحات دون قراءة. ولعل المؤلف، بما عهد به إلى الصحفي من دور يقوم فيه مقام الكاتب الضمني - على رأي من يرى

ذلك - يخفّف من تأثير هذا التزيد المسبّب للرتابة، المفضي إلى الشعور بالملل، وتكرار القفز عن الفصول من واحدٍ لآخر.

الصحفي

فهذا الصحفي يُدْخلُ على نسق الرواية تعديلا يخالف فيه قواعد اللعبة السردية. فبدلا من أن تُعرف حكاية الرجل الثمانيني منه، أو من أحد أقاربه، أو من صديقه (حبيب) سمح لخياله أن يجري وراء الوقائع الافتراضية التي تهيأت له تهيؤًا. فهو يتوقف إزاء الصورة التي عُثر عليها في محفظة الرجل فافترض أنها حبيبته التي عاش في انتظار أن يجتمع بها. وسماها الصحفي سلوى. كان الثمانيني، مثلما تهيأ للصحفي، قد وقع في غرامها بيافا عام 1946 وهو العام الذي ذُكر على الوجه الخلفي للصورة. وفي تلك السنة خَطَب الفتاة. وفي التي تليها غادر إلى القدس للدراسة.

الفتى (الثمانيني) لجأ إلى قطاع غزة عام النكبة 1948، واستقرّ به المقام في المخيم. فيما غادر أخوه الأكبر للشمال واستقر ببيروت. وأما (سلوى) فلم يعرف الرجل الثمانيني عنها أيّ شيء. وهكذا تنتهي الحكاية الافتراضية المتخيلة بعثور الثمانيني على عمل وهو ساعيَ بريدٍ، واقتنى لهذه المهمة دراجة هوائية صدمتها الشاحنة، وظل دولابها يدور لثوانٍ بعد سقوطه أرْضًا، وارتطام رأسه بالرصيف، ووقوعه في غيبوبة يسميها لاحقا (الموت السريري).

ولا يكتفي الصحفي بهذه الحكاية المتخيَّلة على سبيل الافتراض، إذ يخترع حكاية أخرى شبيهة بها للفتاة التي تعتني بالمريض الآخر. وثمة حكاية أخرى يخترعها هذا الصحفي، وهي لابنة المحرر ومحبّها الغيور المغرم بالشاعر أحمد دحبور. وأخرى للمُمرِّضة ذات الجسم المُمتلئ. وجلها قصص حبّ، وعشق، كأنّ كل فلسطيني أو غزاوي- بكلمة أدق - لا يخلو من أن يكون دون جوان، أو مجنون ليلى بزمانه.

تتواتر الحكايات في مسعى من المؤلف لدفع الضجر عن القارئ. بيد أنها لا تساهم قطعًا بالوقوف على طرف خيط يقود المحققين لمعرفة جليَّة الأمر. وهل كانت الحادثة جريمة، واعتداءً، أم أنها حادثٌ عرضيٌ لا أكثر. ويبدو أنَّ المؤلف بسبب هذا الإفراط في الفرضيات، والخيالات التي تفنن في اختلاقها الصحفي، أو الشرطي، أو بائع الخضار، أو السائق، أو ابنة المحرر، أو الممرضة، أو الفتاة التي غادر ابن عمها للدراسة في تونس، لم يستطع الوصول بالنسق لخاتمة يرضى عنها هو، ويرضى بها القارئ. لذا نجده في ص 203 يختتم هذه الحكاية بنهاية مفتعلة جدًا، تثير شفقة القارئ بلا ريْب. فأحد الشخوص يتساءل: " ماذا لو عادت سلوى.. وفتحت الباب ودخلت .. (على فرض أنها تعلم بوجود هذا الحبيب في هذه الغرفة من المستشفى) ووضعت يدها على رأسه فأفاق من غيبوبته .." وبعد 6 أسطر يقول الراوي: " عادت سلوى. فتحت الباب. ترجَّل ونهض عن السرير مثل شمس تشرق من بين الغيوم.. كأنه كان ينتظرها قبل أنْ تصل. فتح عينيه، وملأهما بحضورها في قلبه الثانيني. عاد طفلا يلهو في أزقة يافا " في هذه الخاتمة لا يجد القارئ إلا ما يذكّرهُ بمسلسلات الأطفال التلفزيونية التي تبدأ عادة، أو تنتهي، بعبارة " افتح يا سمسم".

وجهات النظر

علاوة على ما سبق يعاني النسق الروائي من اضطراب. ذلك أن المؤلف لجأ إلى تقسيم النص فصولا بعضها يحمل عنوانا دالا على الوقائع. مثل: ملاحظات الشرطي حول المريض، دعوة مشتركة على قهوة. التقرير الأول للشرطي. ملاحظات الصحفي على.. وبعضها يحمل عنوانا لا يدل على الوقائع، بل على أشخاص، منها: المحرر، أو صورة – سلوى – وسلوى عنوان فصل آخر، ونجاة. وصاحب محل الفاكهة. والسائق. وهذه العناوين لا ينتظمها نسق. وتنم على الارتباك؛ فهو يحاول اتباع تكنيك وجهة النظر point of view غير

أنه حائر بين هذا التكنيك والبناء القائم على وحدة الراوي العليم، الذي يهيمن على الصحفي، وتقاريره.

فقد أراد الكاتب أن يوحي لنا باستقلال شخصية الصحفي عنه، وأنه كاتب ضمني، لكن ما يرويه الصحفي هوما يسرده الراوي العليم. فكلامه ومحكياته عن سلوى أو نجاة أو أي مشبوه آخر من المشبوهين هو من مرويات السارد منسوبة للصحفي. وهي لا تجعل منه ساردا فعليا لما يرويه. والدليل على هذا كثرة التعليقات التي تعبر عن رأي المؤلف، وهي تعليقات تتضمن الإملاءات التي يضعها أمام هذا الصحفي لينتقي منها ما يريد، ويترك ما لا يريد. يقول في ص 107 مثلا " تذكرون أن من حِكَم الحياة وخبراتها الأزلية أنّ القلوب المجروحة لا تشفى. كنت أظن مثلكم. ربما أن الشوق يجف من شدة الفراق. وأن القلوب تُروَّض وأنَّ رياح البعد الآتية قد تدجِّن الروح. لكن صدقوني إنَّ شيئا من هذا لم يحدث. ظل سنوات طوالا، ذهب بذهابها عمرهُ، يحمل رسائل الآخرين .. ينتظر لحظة مخبأة في جيوب القدر. تحمل رسالة له منها ".

فمثل هذا لا يمكن أن يذكرهُ الصحفي المعنيّ بما جرى فعلا، لا بما لم يجر، ولا بما هو متوقع. فهو كلامٌ يتخذ صاحبه فيه مظهر الواعظين، ويفصح عن أنَّ الرواي، لا الصحفي، ولا الشرطي، ولا ابنة المحرر، ولا الفاكهاني، ولا السائق هو الذي يتحدث. والتعليقات التي تؤكد هذا، نعني تعليقات الراوي العليم، أكثر، وأوضح من أن تخفى على قارئ.

تداخل المرويات

تضاف إلى هذه الإشكالية اضطرابُ النسق نتيجة تداخل المرويات تداخلا لا يفضي لشيء. فهو يقف بنا قليلا عند شخصية نجاة. فما إن يروي عنها بعض المواقف التي لا تسهم بنمو الحكاية حتى يتوقف، ولا يعود لذكرها قطعًا. كأن الفصل الذي يقع بين ص 94 و 97 حشو لا أكثر، فلو حذف منها لما ترك حذفه

ثغرة أو نقصا ينتبه له القارئ. إلى ذلك أقحم المؤلف حكاية خميس، وتجارة الأنفاق، وتحول الفقير البائس إلى مليونير في وقت قصير. وقد غالى في ذلك مغالاةً يتوقع منها القارئ تأثيرا على المجريات، لكن شيئا من هذا لم يقع.

وهذا لا يعني أنَّ الكاتب أخفق في تصوير المكان داخل المخيم، وما يعتريه من بؤس تارة ومن فساد تارة. ولا تخلو " مشاة لا يعبرون الطريق " من مواقف يسلط فيها الكاتب الضوء على ديناميكية الحياة اليومية فيه، والإشارة بصفة خاصّة لما تخلفه فيه الحروب المتكررة من إراقة الدماء وقصف البيوت والأبراج كبرج الباشا، وهدم المنازل على رؤوس الآمنين. وهذا هو الجانب الذي يجعل من قراءتها قراءة لا يعقبها ندم، ولا يخلو التأمل فيها من بعض الألم.

---

*انظر ما كتبناه عن روايته حياة معلقة في كتابنا اجتهادات نقدية ، ط1، عمان، الألفية للنشر، 2017 ص ص 159- 163

الخيمة البيضاء لليانة بدر

رواية تقول ما لا يقال

سواء أكانت الخيمة بيضاء، أم سوداء، فإن الذي يقيم فيها من الفلسطينيين لن يكون سعيدا بأي معنى. هذا ما يلقي بظلاله السود على رواية (الخيمة البيضاء) لليانة بدر الصادرة عن دار نوفل للنشر والتوزيع ببيروت 2016. تقول الرواية على ألسنة الشخوص: نشيد، عاصي، بيسان، خالد، ندى، غسان، غازي، لميس، وآخرين .. الشيء الكثير مما لا يقال عادة.

فالسيدة(نشيد) التي تناهز الخمسين تعاني، بعد انخراطها المتكرر في انتفاضات الشعب الفلسطيني، من إشكالات كثيرة، بعضها من الزوج الذي يكاد ينصرف عنها انصرافا بلا مبالاة، وبعضها من الابن خالد، الذي يدبر في الخفاء مع ابنة الجيران بيسان ما لا تستطيع التكهُّن بخطره، وتعاني من أجواء الفوضى التي تعم المدينة رام الله، وتعم البلاد كلها بما في ذلك العودة بالمرأة إلى زمن الحرملك، على الرغم من أن الماضي القريب أشعرها بظروف أكثر ثورية حظيت بها المرأة، ولا سيما بعد أن شاركت في الانتفاضة الأولى، وفي الثانية، مشاركة الرجل سواء بسواء. فما الذي حدث حتى أصبحت الأخبار عن جرائم الشرف، وقتل المرأة لأسباب واهية، وتافهة، أخبارًا يومية لا تكاد تنقطع. تخطط هي وندى وعدد آخر من الناشطات لإنقاذ فتاة (هاجر) من الذبح على يدي ابن عمها الذي رفضت الزواج منه، وآثرت الاقتران بزميل لها تحبه، تعرفت عليه، وتعرف عليها، في مصنع للملابس يعملان فيه: « لا يريد لها ابن عمها أن تتزوج رجلا غيره، حلف ليقتلنها

إذا تزوجت من رجل آخر من خارج العائلة « وقد نفذ تهديده، لكن الرصاصة لم تصب منها مقتلا، وإنما مرت عن الكتف محدثة أثرا. فما هي، برأي نشيد، جريمة هذه الفتاة التي تستحق عليها القتل، بإطلاق النار عليها من بندقية كان يجب ألا تستعمل إلا لمواجهة الاحتلال.

أما الأب – والد نشيد- فكان قد أمضى الكثير من سنوات العمر في معسكرات الفدائيين، في العراق ثم في الأردن وسورية ولبنان، ونجا مرارا من القصف الإسرائيلي، ومن الاجتياح السوري في تل الزعتر، وغيره، فقد انكفأ على نفسه في مزرعة قريبة، قليلا ما يفارقها لزيارة أبنائه، فيما يشبه الاحتجاج الصامت، أو غير المعلن، على مظاهر الترف الفاسد الذي يغرق فيه بعض العائدين من تونس إلى الضفة الغربية، « فقد تلهى رفاق الأمس بمشروعاتهم الشخصية من بناء البيوت، وترتيب أمورهم الخاصة، تاركين كل شيء على عاتق الآخرين « فالحلم بفلسطين المحررة تحول إلى كابوس مرعب يملأ حياة المحبطين إلى آخر العالم.

هو الآخر لا يخفي قلقه على نشيد، ولا يريد لها التورط في الذهاب إلى القدس لإنقاذ الفتاة(هاجر) من الذبح، فالخطر يحدق بها هي إذا حاولت ذلك. وعلى هذا المنوال تتوالى مونولوجات داخلية ينقلها إلينا الراوي العليم نقلا لا يخلو من تصرُّف، ليلقي بالضوء على عالم عاصي عبد المعطي – والد بيسان- الذي عاد فيمن عادوا إلى فلسطين، وفق التسوية المعروفة باتفاق غزة أريحا أولا. فبعد 25 عاما قضاها هو الآخر في النضال المسلح، يظفر بلقب متقاعد، لا يهم، فقد نخره فيروس الملل في مكتب بعمارة لا يمارس فيه سوى الانتظار المقيت، فهو يقضي وقته يراقب شجرة اللوز التي تشرف عليه من نافذة المنزل المجاور لمنزل نشيد، وأحيانا في المشي، وقد يتردد على واحدة من المقاهي يقرأ الجريدة، « غير أنه يصاب بالجنون كلما سمع عن عدد ضحايا القصف من الفلسطينيين والسوريين الذين يموتون تحت الردم «و « يتقطع قلبه وهو يرى القنابل الكيماوية تقتل السوريين المدنيين «. وهذا الرجل

(عاصي) يمثل هو الآخر نموذجا للمُحْبطين؛ فأين هي فلسطين التي وعدوهم بها؟ وأين هو سلام الشجعان؟

مسرح كبير

التداعيات التي تتكرر في استذكاره للوقائع، وروايته للمجريات، تقول: إن ما توهمه الفلسطينيون شحمًا في اتفاق أوسلو تمخَّض عن أورام سرطانية يستعصي استئصالها على أمهر الجراحين. فلم تعد رام الله- مثلا - تلك المدينة الجميلة الراقية بعد أن اجتاحتها جحافل الفاسدين، واستولوا على الأراضي بطرق غير شرعية، وبحجج واهية تدعمها القوةُ لا غير. فاقتلعت الأشجار، وجرفت الحدائق، والمتنزهات، ونهضت بدلا منها الأبنية العشوائية، وامتلأت جيوب بعضهم بالدولارات، وفاضت في أيديهم الشواقل، وازدحمت الطرق بالسيارات ذات الألوان البراقة الأخاذة، والموديلات الجديدة، فضلا عن النفايات التي ضاقت بها الحواري، والأزقة، فأين هم الذين يتصدون للاحتلال، وهو يقضم الأرض، ويبني عليها المستوطنات بسواعد من عمال فلسطينيين للأسف، بينما توزِّدُ الإسمنت لهذه الأبنية غير الشرعية فئة من قياداتهم الفاسدة. « فكر عاصي، البلد هكذا، تفتح ستارة وتغلق أخرى، دون سبب، لا أحد يمكنه أن يتحكم في المسرح الكبير إذا كان من يديرونه سجاني الاحتلال".

والجدار الذي يحيط بالقدس، وبغيرها من البلدات (نعلين مثلا) كالأفاعي الأسطورية، مانعًا الأطفال من الوصول إلى مدارسهم، محيلا الحياة إلى جحيم لا يطاق. يحمَدُ عاصي عبد المعطي الله لأنه بلغ الستين، بما لهذا من معان سلبية تتراءى في تجاعيد الوجه تارة، وفي بياض الشيب تارة، وفي بعض الصلع طورًا، لأن بلوغه الستين يمنحه امتيازا على من دون ذلك، فهو يسمح له بزيارة القدس وفقا لقانون احتلالي لم يسمع أحد بمثله من قبل. سيزور القدس إذن على الرغم من

الحواجز، ويفاجئ زوجته لميس عند أمها المريضة الحاجّة (جليلة) وهذا هو أقصى ما يتمناه.

شخصيات مُحْبَطة

والشخصيات في هذه الرواية تعاني جميعا من الاحتلال، كونه نجح أخيرا في تجديد أشكالة، واحدًا تلو الآخر. فهو احتلال في صورة حواجز، تفتيش، قنابل غاز تبعث الحذر في المارة، دون سبب، أسوار، وآليات تجتاح المنارة وغير المنارة. مستوطنون يندفعون في أي وقت يشاءون داخل الأحياء يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم الأوتوماتيكية فيقتلون هذا ويصيبون ذاك.. ومستشفيات عاجزة عن إنقاذ المصابين.. مثلما جرى لحبيب، الشاب الملاحق الذي تشهى (ساندويش) الفلافل، فدفع ثمن تلك الشهوة دما نازفا متواصلا، وتفجيرا داخليا بالدمدم يمزق الأحشاء. ومظاهرات تتواصل ضد جدار الميز العنصري تتعرض هي الأخرى لهجوم بالآليات، حتى لو كان بين المعتصمين الناشط يوري أفنيري زعيم حركة هعولام هزيه، أو ذلك الموسيقي الذي يأتي من هولندة، وهو في الخامسة والثمانين، ليتضامن مع المعتصمين تضامنه المعروف مع ضحايا الهولوكست.

سلامٌ غير دافئ

حتى على مستوى العلاقات الشخصية بين أفراد هذه الشريحة الاجتماعية لا يوجد سلام دافئ، بل فتور ينتهي إلى قطيعة. نشيد مثلا علاقتها بزوجها ليست على ما يرام. فقد أمضى هو الآخر في العمل الفدائي زهرة عمره، ثم تحول إلى(بزنس مان) خارج الفردوس المستعاد في نظر النخبة العائدة من تونس، الذين يقال لهم إنهم أفسدوا حياة الصامدين ممن أمسكوا وحدهم طوال ربع قرن بجمر القضية، فيما كان الآخرون يتشمَّسون على شواطئ بيروت، وقرطاج، والمنزه بتونس. يواصل هذا الزوج، وبعض أبنائه، أعمالهم المختلفة في عدد من العواصم في الخليج، وفي غيره، غير مبالين، لا بما عانته نشيد في الماضي، ولا بما تعانيه الآن. وهي على طرف

آخر تعاني من اعتقال أخيها، وتتحمّل المشاقّ لزيارته، ومن وردة غرامية حمراء تصلها عبر الهاتف المحمول من سجين آخر(غسان) لا تربطها به إلا ذكرى عابرة. وتهديدات تتزايد يوما بعد يوم لا تعرف من أي مصدر تأتي. وهي مع هذا كله، وحيدة حتى نهاية العالم، وجريحة، وعلى الرغم من إخفاقها في إنقاذ نفسها من هذه الوحدة، تسعى لإنقاذ هاجر من جريمة شرف، تُقْتَرفُ بلا ذرة من حياء، أو شرف.

ترى هل ستتمكن من إنقاذ الفتاة بحيث تكون هذه العملية رمزا لموقف المرأة من أولئك الطغاة الذين يريدون العودة بها إلى عصر الحريم؟ بعد ساعات من الوقوف في الحاجز متعدد المراحل، الذي لا فرق بينه وبين السراط المستقيم، يوم الموقف العظيم، إذا ساغ التعبير، فوجئت بابنها خالد – الذي لم تتوقع علمه بتوجُّهها للقدس – يدعوها بصوت عالٍ للعودة، والتراجع، وعدم الذهاب للقدس، لأن خطرًا حقيقيا كبيرا ينتظرها – على رأي جدّه طبعًا- ولكنها بدلا من أن تعود أدراجها تواصل الاندفاع، قُدُمًا، والسبب - بالطبع - لا ينحصر في الشجاعة، والجرأة، وإنما هو سبب آخر، فعبور المراحل المتعددة من التفتيش بعد انتظار طويل، مرهق، لا يسمح بالرجوع إلى الوراء، فالأذرع المعدنية التي تفتح وتغلق آليًا تمنعها من التراجع، أما الشاب، فقد جرى اعتقاله، وربما وُجّهت له، وفقا للمعتاد، تهمة طعن مجندة، أو جندي ممن يملؤون الحاجز.

الراوي العليم

وهذه الرواية، مثلما يتضح من حديثنا السابق، تعتمد على الراوي العليم، الراوي الذي يرصد، ويتتبع الشخصيات، وهواجسها التي تضطرب بين ماضٍ ولّى، وحاضر مؤلم، ومستقبل غامض، أقل ما يقال فيه أنه مستقبل بلا أمل يلوح في نهاية الأفق. إن أسوأ ما يمر به الإنسان من أحوال، وأهوال، هو أن يغرق في اليأس، والقنوط، والإحباط، فحياته مع فقدان الثقة بالأيام القادمة، لا تختلف عن موت بلا قبر، أو حياةٍ منذورة لموت يستعصي على المجيء.

فالراوي العليم، بحركته الدائبة عبر فضاء الرواية، يتنقَّل بنا من شخصية لأخرى. فهو مع نشيد تارة، وتارة مع عاصي، وطورا مع لميس، أو بيسان، أو خالد. وهكذا يقترب بنا من الشخصية حتى ليكاد يصبح جزءًا منها، أو قرينا لها كذلك القرين الذي نجده في قصيدة سعدي يوسف (نبي يقاسمني شقتي) أو ذلك الذي يتحدث عنه شوقي بزيع في " مرثية الغبار " فهو يتكلم بالنيابة عن الشخصية، وفي أحيان قليلة يتوارى خَجَلا تاركا لنشيد، أو عاصي، أو بيسان، أو ندى، أو لميس، أو خالد، أو جده، هامشا غير ضيق للمحاورة، والتحدث مع الذات، لا سيما إذا كان الموقف يتطلب استعادة بعض الذكريات، أو النبش في الماضي.

وهذا الراوي –كلي العلم- لا يكتفي بتتبع الشخوص، واختلاس النظر في عالمها الداخلي، ليفضي لنا بأسلوب حر مباشر، أو غير مباشر، بما تفكر فيه، أو تتذكره، ولكنه أيضا يرصد بعينين تشبهان عدسات المصورين المكان من حول هاتيك الشخوص. وهو، من حيث أنه راوٍ كلّي العلم– يلمُّ إلمام هذه الشخصيات بماضي الأمكنة، وما طرأ عليها من تغيير بعد اتفاق أوسلو. بدءا بالأرض التي تُقضم تدريجا، ومرورا بالطرق الالتفافية التي تقضي على الكثير من البساتين، وكروم العنب والزيتون. وتحيلها إلى فسيفساء غير بديع من الإسفلت. وانتهاءً بالتغيير العمراني الذي يجتاح البيرة، ورام الله، وبيت لحم، وأريحا، وحتى القدس، إما على أيدي المستوطنين ووزارة الإسكان الإسرائيلي، أو على أيدي النخبة المتنفذة في السلطة." تحولت المدينة إلى غابة من الشقق، والدكاكين التي تعج بالبضائع الصينية والتركية، وعشرات الآلاف من السيارات الهونداي والكيا الكوريتين، وملايين الهواتف الذكية، ولا أحد يسأل عن النساء والفتيات الضحايا فيما يعرف بجرائم الشرف العائلي ". وهذا الضوء الذي يسلطه الراوي، بموضوعية يحسد عليها كثيرا، يشير إلى شيء غير قليل من فساد الأمكنة، بعد أن أصبحت للفلسطينيين دولة (على الورق).

لائحة اتهام

وهي إضاءة تمثل، من وجهة نظر الشخصيات، لائحة اتهام المستهدفون فيها كثيرون.

تستهدف- أولا - أولئك الذين عادوا إلى الضفة الغربية، والقطاع بعد الاتفاقية المذكورة، لأنهم تخلوا بسرعة عن ماضيهم النضالي، وشرعوا يتسابقون، ويتنافسون، لا على الامتيازات والمناصب فحسب، بل على مَنْ هو أكثر فسادا وإفسادًا من الآخر. وتستهدف- ثانيا- أولئك الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلي عن كل شيء مقابل الاستفادة، فتحولوا بين عشية وضحاها إلى سماسرة، في بورصة الأراضي، والعقارات، والمشروعات الإنشائية العشوائية التي تقضي على الأمكنة الساحرة في فلسطين، لصالح فئة قليلة لا همّ لها سوى الاستثمار غير المشروع، على حساب القيم الوطنية والأخلاق: « فهذا عاصي مثلا يغبط رفيقا له لم يكن يملك شروى نقير، أصبحَ، بعد عودته إلى رام الله، فيمن عادوا، بين عشية وضحاها، يمتلك ثلاث شقق في عمارة واحدة لزوجاتٍ ثلاث على ذمته ". و- ثالثًا - تتهم هذه اللائحة الإسرائيليين، الذين استغلوا الاتفاقية استغلالا بشعا يجعل من السلطة- بصورة ما- احْتلالا بالنيابة، أو بالوكالة، بكلمة أدق.

فما تمارسه السلطة تجاه الشعب الفلسطيني، فيما تراه هذه الشخصيات- وهي شخصيَّات متخيَّلة – في مدن الضفة، وقراها، ومخيماتها، وفي غزة، وسائر القطاع، لا يختلف عن ممارسات الاحتلال، فهي تعتقلُ، وتلاحق، وتقيد الإقامة، وتستولي على الأراضي، دون ضابط من قانون، أوْ وازع من مبدأ، وتتحكَّم بالناس، وتميز بعضهم على بعض درجاتٍ تبعًا لانتماءاتهم الحزبية، فهذا من حزب الانصار، إذن يستحق امتيازا، وذاك من حزب آخر، لذا لا يستحق مثل هذا الامتياز، أما إذا كان من فصيلٍ منافس، فعليه، وعلى مستقبله السلام. وقد حوَّلوا سلطتهم بهذه الممارسة إلى احتلال بالنيابة، فكما أن الاحتلال في حاجة ماسّة لعملاء يندسون

بين الصفوف، تحتاج السلطة هي الأخرى لعملاء، ولا بد من مكافأتهم بالمزيد من الامتيازات التي تزيد المنتفعين ثراءً، والفقراء فقرًا.

هذا ما تقوله رواية « الخيْمة البيضاء « لليانة بدر، وهو شيءٌ قلَّ من يقوله من الكتاب والأدباء والاعلاميّين، الذين تحولوا إلى جوق من المصفِّقين للأسف. وحتى لو قيل، فإن هذه الرواية لها فضلُ النبش في المسكوت عنه، وإضفاء الصفة الفنية الروائية عليه، مما يجعل منه قولا لا يتطاير في الفضاء كذرات الهباء، وإنما هو قولٌ على درجة عالية من الفنّ تضمن له أن يُقرأ.. ويُقرأ.. ويُقرأ. يقرأ لا من حيث هو وثيقة، وإنما بصفته عملا تخييليا قابلا للتذوُّق، والدراسة، والنقد والاستحسان، وأن يُدرج، ويُصنَّف، في عداد الروايات الجريئة التي تقولُ ما لا يُـقال.

---

*مستخرج من القدس العربي ع 16 حزيران – يونيو 2017

رام الله الشقراء لعباد يحيى

رواية تراسلية ساخرة

"رام الله الشقراء" هي الرواية الخامسة للكاتب الفلسطيني عباد يحيى، فإلى جانب هذه الرواية صدرت له جريمة في رام الله – منشورات المتوسط 2012 ورواية "القسم 14" ورواية "هاتف عمومي"- الدار الأهلية – عمان2015 وله رواية أخرى بعنوان " رام الله " أما الرواية التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا الفصل فكانت قد صدرت أولا عام 2013 ثم أعيد نشرها في طبعة جديدة عن المركز الثقافي العربي في الدار البيضاء وبيروت.

وهي، إذا أريد الإنصاف، ليست رواية بالمعنى الكلاسيكي المتفق عليه في أوساط الروائيين، ونَقَدَة الرواية، إذ تفتقد للحدث المركزي الذي يجمع ما حوله من متواليات سردية أخرى. والشخصيات، في هذه الرواية – إن جاز لها أنْ تسمى رواية - ليست شخصياتٍ كالتي عرفناها ونعرفها في الروايات العالمية المشهورة، القديمة منها والجديدة. فهي مجرد دمى تظهر وتختفي من حين لآخر، دون أن تؤدي دورًا ينم على تفاعلها بالمُجريات، وإنما الذي يستدعي ظهورها هو حديث الراوي الساخر عنها، وعن أي شيء آخر يذكره، ويذكِّره بها.

ولا يبتعد المؤلف عن الحقيقة بقوله في بداية الكتاب، وتصريحه، أنَ روايته نتاج المنشورات المتبادلة على الفيس بوك بين الراوي وصديقته . فالراوي مثقف، صحفي، وإعلامي، يهتم بالوضع السياسي الفلسطيني اهتمامًا كبيرا، يمكن أن نصنفه في معارضي اتفاق أوسلو، والسلطة المنبثقة عن ذلك الاتفاق. أما صديقته فتعمل في مؤسسة أكاديمية، وهي الأخرى مثقفة، ولها اهتمامها بالوضع السياسي, ولا يفتأ الصديقان يتبادلان المنشورات التي تحاكي الرسائل البريدية العادية التي عرفنا شيئا

منها في بعض الروايات، كرواية "علاقات خطرة" للفرنسي لاجلو(1782). وظهر مثل هذه السرديات التراسلية في غير رواية، منها في العربية رواية "الحديقة السرية" لمحمد القيسي.

يبدأ الراوي برسالة لصديقته يتحدث فيها عن الإسرائيلي جوليانو، الذي قدم إلى مخيم جنين لينشيء مسرحا يدرب فيه الفتية والشبان على التمثيل كي يصبحوا ممثلين لا مُقاومين. لكن هذا الجوليانو لم يتمِمْ ما بدأه، فعلى الرغم من أن أهالي المخيم يقولون عنه وعن المسرح "خربوا الولاد والبنات" قتل، أو مات. والإشارة له بسبب العرض المسرحي الذي يقام تأبينا له في مسرح القصبة برام الله. ويقول الراوي في الرسالة التي نشرها على حسابه إن جوليانو هذا جاء إلى المخيم، وإلى رام الله أخيرا، ليكفّر عن أخطاء الماضي، بعد أن شاركت أمه وعائلتها ببنادقهم في تهجير الفلسطينيين من قراهم في قضاء حيفا حين كانت عضوًا في قوات البلماخ*. ومثل هذا الحدث المنطوي على تكريم تأبيني لهذا المُتَصَهين يجتذب الجمهور المثقف في رام الله « هل هناك قبح كهذا ؟من هم الذين أتوا لتأبين الراحل ؟ كان مساءً أمريكيا. كرهتُ كل من احتواهم المسرح. كرهت الحركة المسرحية » ..

كرواسان

وهذا النموذج جوليانو هو واحد من كثيرين، رجالا ونساءً، غرقت بحشودهم رام الله، وغُصَّت، ومن هؤلاء الفتاة التي قدمت من أقاصي الدنيا في أوروبا لتسجل في دورة تعلم اللغة الفرنسية في المركز الألماني. كأن أوروبا تخلو من مركز لتعليم الفرنسية. ومن الحديث عن هذه الفتاة يصلنا الروائي بحكاية الكرواسان. التي أصبحت البضاعة الوحيدة المزجاة. ففي مخابز رام الله، ومقاهيها، ومطاعمها الكثيرة، تغير كل شيء إذن، حتى الفطور بدلا من الزيت والزعتر صار الفلسطينيون في رام لا يتناولون في وجبة الإفطار إلا القهوة مع الكرواسان. وهذا الكرواسان يقال له في بعض البلاد العربية الهلاليات، ولهذه التسمية حكاية لا تخلو من رمز. فقد قيل

إن الفرنجة بعد انتصارهم على الأمويين في معركة بلاط الشهداء 114هـ (بواتية) Poitiersخبزوا خبزًا على هيئة الهلال شماتة بهلال المسلمين، فهم يلتهمون هذا الهلال تعبيرًا عن تشفيهم بعبد الرحمن الغافقي وجنده. وفي رواية أخرى يذكرها الرواي تقول: إن الكرواسان اختراع سبق إليه البولنديون الذين أرادوا التشفي بالعثمانيين بعد تراجعهم مهزومين من حصار فينا 1529م، وهذا الخبز الذي يشبه الهلال يتشفى آكلوه بالعثمانيين، وهلالهم الرمزي.

ليست رام الله

يدلفُ بنا الراوي من مقهى إلى مقهى، ومن مطعم لمطعم آخر، ومن مسرح إلى مسرح آخر، ومن علبة ليل إلى علبة ليل أخرى، ويتنقل بنا أيضًا من شارع إلى شارع في رام الله؛ البلدة القديمة، والجديدة. ليتضح من رسائله لصديقته أن رام الله لم تعد رام الله المعروفة بأجوائها المنعشة صيفا، وبطبيعتها الجبلية الخلابة، ومتنزهاتها الرائعة، وبيوتها الحجرية النظيفة التي تنم على الأحساس الراقي، والشعور المرهف، فهي تتعرض لجحافل من الأجانب الذين لا يجدون عملا غير التجوُّل فيها، والاهتمام بالشأن الثقافي والفني والسياحي، والملاهي: سينما، مسرح تهريجي، غناء رخيص، رقص تعبيري، وباليه.. وهكذا يغدو أهالي المدينة فيما يقوله هذا الكتاب أغرابًا في مدينتهم الكلاسيكية، وعليهم في هذه الحال أن يتخلوا عن تقاليدهم، وعاداتهم، وعن لغتهم التي بها يتكلمون، وأن يهدُروا بإنجليزية ركيكة، ولا يهم إن كانت بلكنة عبرية، فهذا لا يقدم، ولا يؤخر. فأكثر هؤلاء – مثلما تفصح الأوراق- إما من الموساد، أو من عملائه، إذ كيف يمكن أن يصدِّق أحد أن سيدة أمريكية تأتي من بلادها لا لشيء سوى ترتيب المكتبة في جامعة فلسطينية تقع على كثب من رام الله في بير زيت. وكيف نصدق أن رجلا يأتي من آخر الدنيا في إيطاليا أو ألمانيا ليجعل من رام الله وَكْرا للمثليّين، هكذا.. ببراءة كهذه ليرفّه عن الشواذ في فلسطين؟ ولا يفتأ هؤلاء يأتون من معبر قلندية بين القدس ورام الله لكي ينهضوا

بالمقاهي، والبارات، والفنادق، والمطاعم، وتطويرها، لتغدو على قدم المساواة مع مثيلاتها في لندن، وباريس، وواشنطن. ألم يتذكر بعض الفلسطينيين من أهالي رام الله ماذا فعل هؤلاء الشقر ذوو الأعين الزرق باستوديو فينوس الذي طالما احتوى في صوره أطيب الذكريات، إذ حوَّلوه إلى ركام، ومن الركام انبثق محمص لبيع المكسرات والتسالي. يقول الراوي لصديقته تعليقا على حكاية الاستوديو" الفرق بين اللعوب والعاهرة أن اللعوب تتنقل بين عشاقها وتتذكرهم، لكن العاهرة على العكس من ذلك تنساهم، ولا تتذكر منهم أحدًا. رام الله تنسى ".

عمر وأوفيليا

في الأثناء تتراءى لنا بداية حكاية جديدة، حكاية عمر، وأوفيليا. فالسيدة تهرب على حين غِرَّة، وعمر الذي وقع في غرامها لم يكن يتصور أنها حضرت لكي تلقي بشباكها حول أيّ شخص تتخذ من حبه لها سببا للبقاء في رام الله، ريثما تنهي المهمة التي عُيّنت من أجلها، وكُلِّفت بها في أجلٍ معين. فعندما انتهت تلك المهمة، ولا ريب في أنها مهمَّة تجسّس، رحلت في ما يشبه الهروب . يقول رشدي، وهو من الشخصيات التي تظهر في الرواية بلا مناسبة: « إحنا بس بنعطيهم مبرّر عشان يضلوا هون، ولما ييجي مبرر أقوى لرجوعهم لبلادهم رح يرجعوا. ما تفكر. كلهم راشيل كوري[1] » .

ما إنْ تنتهي حكاية أوفيليا هذه حتى نكون مع حكاية أخرى تبعث على السخرية أكثر من ذي قبل، وهي حكاية لوحة بيكاسو التي جرى إحضارُها إلى رام الله لتعرض بضعة أيام في المتحف الذي أنشأه إسرائيليون مقنَّعون بجنسيات إيطالية أو ألمانية أو بأقنعة المارينز. وعند وصول اللوحة تقوم الدنيا في رام الله، ولا تقعد، فالشرطة التابعة للسلطة تحترق وجوه رجالها، وتتحَمَّص في لهيب الشمس، وهي

1.راشيل كوري بطلة رواية حمامة كولمبيا لهارون هاشم رشيد، انظر ص 103 من هذا الكتاب.

بانتظار بيكاسو هذا، مع أن لوحاته في اللوفر، وفي غيره، تقف أمامها الملايين دون حراسة. أما في رام الله، فقد فُرض حظر التجوال استعدادا لاستقبال لوحة بيكاسو، وتقاضت شركات الشحن، والتأمين، وسماسرة اللوحات، ثلاثة ملايين دولار، وهو مبلغ كافٍ لإعادة إعمار مخيم جنين الذي دمَّرته المجنزرات الإسرائيلية، وطائرات الأباتشي، ولم تُبْق منه حجرًا على حجر. وهذا السيرك الثقافي الفني الذي لا يُعجب الراوي، ولا صديقته التي تنتظر رسائله الكئيبة على الطرف الآخر، ينتهي بسؤال افتراضي يُخاطب فيه السارد أولئك الذين افتتحوا "السامر" بشعارات وتصريحات نارية عن الفن: كيف سَمَحت إسرائيل بدخول اللوحة، وهي تحاصر كل شيء، وتمنع أيَّ شيء، بما في ذلك أسطول الحرية الذي اعترضت طريقه إلى غزة، أو - على الأقل - كيفَ سمحت بدخول اللوحة، وقد رفضت قبيل أيام دخول الأمريكي تشومسكي إلى رام الله ليلقي فيها مُحاضرة؟

مشروع رواية

مثل هذه التساؤلات لا تنبئ إلا عن موقف ألَمَعنا إليه، ونبَّهنا عليه، وهو تماهي المؤلف بالراوي، فكلاهما يدينُ السلطة المنبثقة عن اتفاق يعارضه الكاتب أساسًا، وهو اتفاق أوسلو 1993. ومن هذه الملاحِظ، والمواقف التي سقنا بعضها لوضع القارئ في أجواء هذا الكتاب "رام الله الشقراء " يتَّضح أنه مشروع رواية، لا رواية بالمعنى الدقيق. إذ كان يُسْتحسن أن يختار المؤلف حدثا من هذه الأحداث، وهي كثيرة، ليجعل منه محورًا رئيسيا تدور حوله سائر الوقائع الأخرى، وأن يجعل من الشخصيات – كشخصية عمر، وأوفيليا- شخصياتٍ تؤدي ادوارًا في تلك الأحداث من بداية الرواية لآخرها، في نسق ينمُّ على ما بينها من ترابط. ولو أتيح للمؤلف أن يركز على حكاية عمر، وتلك المرأة، تركيزًا يسمح لما ذكر موجزا أن يجد ما يحتاج إليه من تفاصيل، لكانت الروايةُ روايةً أخرى، أما عن تكرار ما نُشر في بعض المقالات من أن هذه الرواية رواية جيدة لأنها نجحت في جلاء الصورة

الخاصة بالمدينة من حيث هي مكان، وفضاء روائي، فهذا، وإن كان ضروريًا في الرواية الجيدة، إلا أنه غير كافٍ ليحوّلَ أيَّ سواليف تُروى، أو مراسلات تُتَبادل، لرواية بالمعنى الدقيق، وإلا فإنّ الكتب التي تصفُ البلدان، وكتب الرحلات التي يصف فيها الرحالة ما يشاهدونه في الأماكن، هي الروايات، وما عداها لغوٌ لا قيمة له، ولا مزيّة فيه.

---

*البلماخ تنظيم إرهابي صهيوني أنشئ في العام 1941 ومن قادته يغئال ألون، وموشيه دايان، ويتسحاق رابين، وقد نفذ بذراعه المسلح « الهاجاناة « الكثير من المذابح في فلسطين.

حمامة كولمبيا لهرون هاشم رشيد

تجربة متعثرة

عن عمر يناهز الثالثة والتسعين غيّب الموت الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد (1927- 2020) في 27 تموز/ يوليو 2020، وكان قد ولد في غزة ودرس في مدارسها، وفي عام 1947 التحق بوظائف إعلامية تابعة لإذاعات وصحف فلسطينية، قبل أن يصبح مشرفا على القسم الخاص بفلسطين في إذاعة صوت العرب من القاهرة. وعندما ظهرت منظمة التحرير التحق بإعلامها الرسمي في غزة، وظل على رأس عمله حتى عام 1967، حين وقع قطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي في يونيو/ حزيران. وقد أحاطه الاحتلال بالكثير من الضغوط، ما دعاه لمغادرة القطاع إلى القاهرة التي تابع فيها عمله السابق إلى أن بلغ سن التقاعد.

والمعروف أن لهارون هاشم رشيد الكثير من الدواوين الشعرية، التي زاد عددها على العشرين، وقد جُمع عدد منها كبير في كتاب صدر بعنوان الأعمال الشعرية الكاملة لهارون هاشم رشيد. ويعرف القراء أيضا أن لهارون هاشم رشيد قصائد شقت طريقها إلى حناجر المطربين، أمثال فيروز، وفايدة كامل، وكارم محمود، ومنها أغنية «جسر العودة» و«سنرجع يوما إلى حينا» وغيرها.. وقد تعود شهرته شاعرا لهذه الأغاني أكثر مما تعزى لما كتب عن شعره من دراسات نقدية وأطاريح جامعية.

على أن الذي لا يعرف عنه أنه بالإضافة لشعره، وكتاباته البحثية عن الشعر والأدب، ومسرحياته، خاض تجربة كتابة الرواية، فأصدر في عام 2005 روايته

الأولى بعنوان «راشيل كوري- حمامة أولمبيا» (دار مجدلاوي، عمان). وفي هذا الفصل نلقي الضوء على ما خفي من عطاء هارون هاشم رشيد.

فالرواية تتناول حادثة حقيقية وقعت في 16 آذار/مارس 2003 وهي النهاية التراجيدية لفتاة عشرينية أمريكية تدعى راشيل كوري[1] كانت في يناير/كانون الثاني من ذلك العام، وفي أثناء الانتفاضة المعروفة بانتفاضة الأقصى، قد هيئ لها أن بمقدورها أن تفعل شيئا ضد همجية الجيش الإسرائيلي، وتقديم الحماية للأطفال الفلسطينيين الذين يتعرضون لأبشع أنواع الإرهاب، وهو إرهاب الدولة الصهيونية، فعزمت على القدوم لقطاع غزة والاستقرار في منزل الدكتور سمير، الذي لا يلقي الكاتب الضوء الكافي على علاقته بها، أو بمجموعة التضامن مع الشعب الفلسطيني، التي تضم شخصيات أمريكية وإنكليزية وسويدية. منهم ستيفان وتوم ديل وجوزيف وآخرين، لا داعي لذكرهم ها هنا فدورهم في الرواية لا يتعدى دور الكومبارس في المشهد التمثيلي.

ويتابع الراوي العليم هذه الشخصية متابعة الظل لصاحب الظل، ابتداءً من حديثها إلى أبويها عن الفكرة، مرورا باقتناعها بأن ما تنوي فعله، وما هي عازمة عليه، شيءٌ لا يتنافى مع المبادئ التي انشئت عليها وربيت، وانتهاءً بمرافقته لها في رحلتها بالطائرة إلى أن حطت بها في أحد المطارات لتتوجه منه إلى قطاع غزة، وعبورها الحواجز واحدًا تلو الآخر مع ما لاقته في الأثناء من تحقيقات، ومن تأخير، الغاية منها إشعارها بأنها شخص غير مرغوب فيه. وتختار أن تكون إقامتها في مخيم حي السلام على الحدود مع مصر في رفح، ويلازمها الراوي في حلها وفي ترحالها، في يقظتها وفي منامها، في أحلامها وفي ما يعتادها من كوابيس.

1.انظر ص 100 من هذا الكتاب .

وفي أنشطتها اليومية مع فريق التضامن ومواجهاته المستمرة لجنود الاحتلال، وجرافاته المتقدمة نحو بيوت الفلسطينيين لهدمها، والتصدي في هيئة دروع بشرية لحماية الأطفال من تعسّف الإسرائيليين، ومن أسلحتهم الرشاشة التي لا تكف عن إطلاق الأعيرة النارية لتحصد المزيد من الضحايا المدنيين.

ولا يفوته مع ذلك أن يرصد مشاعر الانجذاب والميل التي بدأت تدب في عروق ستيفان - السوديدي - تجاه راشيل الأمريكية، فلم ينتظر طويلا قبل أن يبوح لها بحبه، وهذا الحب لقي تربة خصبة مواتية عند راشيل، وما هي إلا ساعات معدودة حتى كان الاثنان قد اتفقا، في سرعة قياسية لا يتقبلها القارئ، على الخطوبة. وللراوي في هذه الرواية طبيعة خاصة يشذ بها عن الراوي المعروف في الأدب الروائي. فهو ملتبس بالمؤلف الذي هو بدوره ملتبس بالدارس الباحث المؤرخ الإعلامي، الذي لا تغيب عن ذهنه صغيرةٌ أو كبيرةٌ من تضحيات شعب فلسطين وجهاده. ولا صغيرة أو كبيرة من ممارسات الإسرائيليين. فهو حين يستطرد متحدثا عن الانتفاضة يتذكر أسماء الشهداء واحدًا تلوَ الآخر، من محمد الدرة إلى الطفلة إيمان حجو.. ولا يغيب عن فكره اسم واحد ممن اغتالتهم طائرات الـ F.16 من قادة فلسطين بمن فيهم صلاح شحادة. ولا تغرُب عن باله تفاصيل الهجرة من المجدل إلى غزة مثلا، حتى لتكاد المعلومات التي يرويها على مسمع الأمريكية راشيل لا يعرفها الكثيرون جدًا من الفلسطينيين، بمن فيهم أدق المتابعين للقضية من سياسيين وإعلاميين.

وهذا بالطبع يضفي على مرويات هارون هاشم رشيد طابع التوثيق لا التخييل الروائي، ففي موقع آخر يذكر أرقاما لعدد المنازل التي دُمِّرت، وأخرى للعمال الذين فقدوا أعمالهم، وثالثة لأعداد المستوطنين في المستعمرات التي أقامها المحتلون على أراض سرقت من الفلسطينيين في القطاع، وفي موقع آخر يذكر أنواع السلاح الإسرائيلي، والمكان الذي يستورد منه من العوزي إلى الأباتشي..

ومن الدلائل على المبالغة في التوثيق ذلك الاستطراد الذي يعود بنا إلى فهمي الحسيني رئيس بلدية غزة في عهد الانتداب البريطاني، الذي سمي في عهده الشارع الرئيسي بغزة باسم شارع عمر المختار نكاية بالإيطاليين الذين أعدموا المجاهد الأكبر. وهذه نماذج قليلة من كثيرة جدا وردت في متن الرواية، تدل دلالة لا تقبل الشك على أن الراوي في هذه الرواية هو هارون هاشم رشيد نفسه. مستفيدا من خبرته الطويلة المتراكمة، علاوة على أنه لا يخفي إطلاقا تقيده بمروياته هذه بما حدث وجرى فعلا، حتى إنه ليذكر الساعة واليوم والتاريخ واسم الشهر، فهذا جرى في يناير، وهذا في فبراير/ شباط، وهذا في آذار/ مارس.. من السنة 2003.

والغريب اللافت للنظر أن الكاتب ـ مع ذلك- لا يحول بين راشيل كوري ورواية حكايتها المؤثرة بنفسها من حين لآخر. واختار لهذا طريقتين، أولاهما هي استخدام المونولوج، ولاسيما عندما تحاول النوم، فيتأبى عليها الرقاد. فتنثال عليها الأفكار والتداعيات في هذه الأثناء فتقدم نفسها للآخرين، أو تؤكد إيمانها بصواب ما هي عليه من تفكير. تقول: «أنا راشيل، التي تصفونها بالمبتسمة الضاحكة التي تُشيع المرح والبهجة حيثما حلت.. نعم. إنني أحلم.. بما تحلم به كل فتاة مثلي». وهذا مونولوج يمتد في صفحات من 89- 93 وتتعلق بهذه الطريقة طريقة أخرى، وهي مقارنة آرائها بآراء زميلتها في الكلية روزيت المنحازة للإسرائيليين، الكارهة للعرب والمسلمين كراهية عمياء، بلا سبب إلا الوقوع تحت تأثير التضليل الإعلامي الصهيوأمريكي. وبهاتين الطريقتين يكتشف القارئ أن المتحدث هو المؤلف نفسه. وليس راشيل، أو روزيت، ولكن ثمة وسيط آخر لجأ إليه الشاعر رشيد، وهو الرسائل، مع أننا لا نستطيع أن نعد الرواية رواية تراسلية، فقد دأب على تضمين الفصول رسائل بعثت بها راشيل لوالديها عبر بريدها الإلكتروني. وبعضُ هذه الرسائل – في ما يبدو – رسائل حقيقية بدليل تلك الردود، والنسخ، التي

أضافها في ملحق بالرواية بلغتها الإنكليزية. مع أنه في سائر الرواية أنطق البطلة بالعربية، متجاهلا أن راشيل لا تعرف هذه اللغة، وتقوم بمساعدة أطفال المخيم على حل واجباتهم بالإنكليزية. وقد أضفت تلك الرسائل على حكاية راشيل مزيدًا من المصداقية، التي تنفي عنها نسقية الكتابة الروائية المتخيلة، أو ـ على الأقل- القريبة من الخيال القصصي.

وقليلا ما يهتم المؤلف بالطرف الآخر ـ الإسرائيلي- إلا بذكره الاحتلال، وجنوده، وخير مثال على هذا ما ورد عن العميد شولومو، وما صدر عنه من تحريض لجنوده، فهو يسمح لهم، بل يشجعهم على الاعتداء على أفراد من فريق التضامن، بمن فيهم الأمريكيون، والإنكليز، مؤكدًا أن هذا هو الدفاع عن النفس، مقتبسًا تصريحًا لجورج بوش الابن يقول: « الرئيس بوش أعطى إسرائيل الحق في القتل تحت ذريعة ما سماه الدفاع عن النفس» فهذه الصيغة تحت ذريعة ما سماه صيغة فلسطينية، تتضمّن الإقرار بأن الدفاع عن النفس حجة واهية، ومفتعلة، وكاذبة. وليس من المعقول أن يقول بها عميد إسرائيلي مثلما جاء في المشهد الذي يرويه الراوي، إلا إذا كان شولومو منحازًا للفلسطينيين.

وتبعًا لما جاء في هذا الفصل من ملاحِظ، نستطيع القول: إن الفقيد الكبير، وإن حاول أن يكتب الرواية، مضيفا لعطائه في الشعر عطاءً في النثر يدرجه في عداد الروائيين، إلا أنه – كغيره من الشعراء حين ينصرفون عن الشعر لكتابة الرواية، قليلا ما يُبدعون. ويذكر أنَّ لهارون هاشم رشيد رواية أخرى بعنوان «أبو جلدة والعَرْميط» (مجدلاوي، عمان، 2007) وهي شبيهة براشيل كوري من حيث أنها سيرة لشخصين من المقاومة الفلسطينية ظهرا في أربعينيات القرن الماضي، واختلطت بسيرتيهما الحقائق بالأساطير.

---

*عن جريدة القدس العربي ع 13 آب -أغسطس 2020

تفاحة العابد لجهاد أبو حشيش

ومآلات المناضل السابق

تعتمد رواية جهاد أبو حشيش الثالثة تفاحة العابد(دار فضاءات، 2019) على حبكة لا تخلو من غموض مصدره تلك الشخصيات التي تتشابه، وتختلف، في معترك الحياة.

فثمة امرأة باسم (تاليا) توحي، بما تقوله عن عشيقها عواد، أنها إما جاسوسة، أو يستخدمها الجواسيس لإيقاع الرجل، هو، والشركات، أو الوكالات، التي يديرها بمشاركة أخيه المناضل السابق سيف، وتوريطها فيما لا ينسجم مع القانون. فهي لا تُكِنُّ له ذرة واحدة من الاحترام، أو التقدير، على الرغم من أنها لا تنفي علاقتها الوطيدة به، إن كان الأمر على مستوى العمل أي: (البزنس) أو على مستوى العلاقات الغراميّة في السرير. فهو- باختصار - يشبه بالنسبة لها " الحذاء القذر الذي لا بد منه لصَوْن القدمين نظيفتين " [1]. وأما منال، فتتحدث عنه بلهجة أكثر توترًا، إذ لا ترى فيه سوى مُغتصب لا يكف عن التهامها، وإذلالها، ولا يفتأ يسْحَقُها تحت حذائه مثلما يسحق حشرة ضارة، وتتوعده بدفع الثمن[2] .

1.أبو حشيش، جهاد، تفاحة العابد، ط2، عمان: فضاءات،2019،ص 10

2.المصدر السابق نفسه، ص ص 13- 14

ومنال هذه يعود المؤلف إليها بعد نحو 50 صفحة من السرد القائم على تعدّد الأصوات، واختلاف النَبْرة، فقد جاءها عواد على حين غرّة، فلما فتحت الباب، اكتشف أنها قد تأنقت، وارتدت من الملابس أكثرها إغراءً، وإثارة، وكأنها على موعد مع عشيق. وسألها فورًا عن سبب تغيير قفل الباب، فادَّعت أنها قامت بتغييره بسبب غيابه الطويل، وخَشْيَتها على نفْسِها من الطفيليّين. وفي هذه الشَذْرة من الرواية يتعرف القارئ على (عواد) الذي ترك زوجته عائشة، وابنه عادل، وابنته عصرية، وغادر البلاد بعد أن أقنع أخاه (سيف) بمشاركته في صفقاته، وتجارته غير الشرعية، على الأرجح.

وكان قد يئس من ابنه عادل، الذي يشبّهُهُ بكوْمَة قش، لا تضرّ، ولا تنفع. ولهذا يريد من منال أن تجود عليه بولد ذكر يرثه بعد موته، كُرْها، إن لم يكن طوعًا، فهي لا تريد الحمل، و الولادة، حفاظا على قوامها الرشيق، لكنه، فيما يشبه الاغتصاب، عاشرها تلك الليلة في بيتها السري في الشونة الجنوبية. وما هي إلا أيام معدودات حتى ظهرت عليها إمارات الحَمْل، ففرح بذلك كثيرًا، ودار يرقص في المستشفى، صارخًا وسط الناس:

– ولد. ولد.. أريد ولد [1] .

المناضل السابق

في اللقاء السريع الذي جمع بين عواد، وأخيه سيف، في بيتهم القديم، ذلك البيت الذي تظهر عليه علامات الفقر قياسًا بالفخامة التي يمتاز بها بيت عواد، يلمّح سيف لماضيه في الثورة، بيد أن المؤلف أتاح لهذا المناضل السابق في فِصْلة أخرى أن يصرّح بالكثير، ويُفصِحَ عن ذلك الماضي بما هو أكثر. فثمة صوَرٌ لشهداء سقطوا سقوط الأبطال في عمليات فدائية تزيّن الحائط. وتطرَّقَ لتردُّدِهِ

1.تفاحة العابد، مصدر سابق، ص 69

في الانتساب لأكثر من فصيل، فانتسب أولا للشعبية. وهي التي ملَّ منشوراتها الإيديولوجية، وضاق ذرعًا بالفروق بين الماويّين واللينيين، فترك هذا التنظيم مُفضِّلا (فتح) فهي الأكبر، والأقوى [1] . على أنه لم يترك بابًا من أبواب الثورة لم يطرقه، وانتهى به الأمر سجينًا، وبعد أنْ أفرج عنه غادر إلى بيروت، بَيْدَ أنَّ الرفاق لم يرحِّبوا به، ذلك لأنه لم يكنْ ممن يسكتون على الممارسات الخاطئة، وفي مقدّمتها ما عُرف عن (أبو الأمين) وشاع من أنه يسطو على بعض مخصَّصات العناصر، وبدلا من أن يُعاقَبَ، ارتقى، وأصبح قائدًا. لذا لم يأتِ اتفاق أوسلو من فراغ، بل كان ثمرةً مُتوقَّعة لاختلاط الحابل بالنابل[2] . وتذكر لقاءً جمَعَهُ بأم الشهيد نايف، فقد وبختْه، وبصقت في وجهه، وقالت له: يا قِلّة هلا! وذكرتْ أنّ السلطة أوْقَفَتْ تعويض الشهيد - على قلّته - مما ترك ابناءهُ، وأمّه، فريسة الجوع، والظمأ.

في الأثناء تذكر ما قاله (عواد) عن شراكتهما، وأنه يستطيع توظيف من يشاء من المناضلين الذين ضاقت بهم السبل، وأعيتهم الحِيَلُ، وأصبحوا بلا عمل، فقرَّر أن يشارك أخاه، وإن كان يشك في شرعية تلك التجارة، وما يعقده من صفقاتٍ تدرُّ عليه الملايين.[3] .

بداية الحكاية

إذا افترضنا أنّ (عادلا) هو محورُ الحكاية في " تفاحة العابد " فإن الرواية تبدأ – تبعًا لذلك - بالإشارة للتفجيرات التي وقعت متزامنة في ثلاثةٍ من الفنادق في عمان ليلة 9 نوفمبر – تشرين الثاني من العام 2005. وهذا الحَدَثُ أشير إليه

1.تفاحة العابد، ص 60

2.المصدر نفسه، ص 61

3.المصدر نفسه، ص 62

في غير رواية، منها رواية " رغباتُ ذاكَ الخريف " لليلى الأطرش(2010)، ورواية الهامش[1] لخالد سامح(2020).

كان عادل، وصديقه عاصم - أخو العريس - يشاركان في زفاف في فندق الراديسون زاس عند وقوع التفجير، وقبيل تقديم قوالب الغاتو بثوانٍ وقعَ ما وَقَع، ومع أنّ الروائيَّيْن الآخريْن يكتفيان بالإشارة لهذا، نجد المؤلف يستطرد في وصف ما أصاب الحضور من هَلعٍ، وارتباكٍ، عمّ المكان. وتوقَّف لدى عصْريّة التي راحت في هذا الجو تبحث عن أخيها عادل في غياب عوّاد الأب، انتهى المشهد في المستشفى حين وقع بصرُها على عادل، وقد غُلف معظم جسمة بالجبْس، فلا ريبَ في أنَّ إصاباتِهِ ليست طفيفةً، ولا يسيرة. عند عودة الأب اسْتشاط غاضبًا في وجه الأطباء، صائحًا: أريد عودة ابني كما كان، وهذا بالطبع ما لمْ يكنْ. فقد أفهمه الأطباءُ، لاحقًا، أنَّ ابنهُ سيواصل حياته اليوميّة كالعادة، إلا أنه سيعيش عاجزًا عن ممارَسَة الجنْس، فهو بكَلمةٍ أدقّ: خَصِيّ، أو كالخصي[2] .

ويُقبل عادل، بتأثير من وضْعهِ الصحيّ، على القراءةِ، إقبال شقيقته عصرية التي درست الإنجليزية في الجامعة، وأصبحت مترجمةً في شركة سياحيّة كبرى، قبل أنْ تغدو نائبًا في البرلمان. غلَبَ على قراءاته علمُ النفس، فكأنه يبحث فيه عما يساعده على فهم حالته الشاذة هذه. وفيما كان ينْظُر في كتاب غريب العنوان " المرأة المخصيّة" فوجئ بامرأة تقتحم عليه متعة القراءة، قائلةً " الكتاب الذي في يدك لفتني، أنا جارتُكم سَماح. عيادتي في أوَّل الشارع" [3] .

1.انظر كتابنا مشكلة البنية في الرواية العربية، ط1، عمان: دار الخليج، 2022 ص 146 ورواية الهامش ص 64- 65 وانظر كتابنا: جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش، ط1، 2017 ص 15 ورواية رغبات ذاك الخريف 2010 ص ص 302- 307 وما بعدها.

2.تفاحة العابد، ص 41

3.المصدر نفسه، ص 74

ودون أن يعرف السبب أَرِقَ تلك الليلة، وهو يفكر بتلك المرأة التلْحَمِيَّة التي دَرَست الطبَّ في هيدلبيرغ- ألمانيا. واقترنت بشاب مصري (أنيس) غير أنَّ زواجهما لم يكن موفقا، لهذا انفصلا، فعادت لبيت لحم في العام 2007 وقد ترسَّخ لديها رأيٌ خاصٌ في الزواج، وفي الرجال. كانت أمها قد تُوفّيَتْ، أما جدَّتُها، فقد تركت لها شقة في دير غبار[1] حيثُ المنزل الذي يقيم فيه عادل.

بعد اللقاء الأول بينهما في الشرفة باتت هاجسَهُ الذي لا يفارقه، لا في المنام، ولا في الصَحو. لقد وقع الرجل في الحبّ، وغرق فيه حتى أذنيه. يَنْظر في الكتاب ليواصل القراءة، فتبرز له بين السطور، وفي سواد الكلمات. وتراءى له أنه يمكن أنْ يتخذها شريكة حياته. فحين زارته ثانيةً، تحدّثا عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وكان حديثها خلافًا لحديثه هو، إذ انصبّ على صداقة لا موقع فيها للقسمة على اثنين: ذكر وأنثى، وهذا بالطبع لا يروق له، كونه يفكر بها من حيث أنها امرأة، ويمكنه أن يقترن بها، إن لم يكن عاجلا، فليكن آجلا.

السمكة والصنارة

عندما أشارَ في حديثه معها للحبّ، والزواج، حدثته عن تجربتها المريرة مع المصري أنيس، الذي لم تكن تطيق البقاء معه تحت سقفٍ واحد. فقد كانَ يطؤُها غصبًا، وعندما تصدَّت له ضربها، وطلَّقها، ورماها في الشارع [2]. فكأنَّ تجربتها مع ذلك المصري خلقت لديها عقدة نفسية هي كراهية الزواج. لكنَّ شعورًا بالثقة بدأ يطغى على موقفها من عادل، مما دعاها لتأكيد الرضا عن هذه العلاقة. إلا أنَّ عادلا، ومن باب الاحتراس، قال بغموض لا يُبين: إن لديه مشكلة ما تمنعه من الحبّ، وتمنعه من أنْ يكون الرجل الذي يُسْعِدُها. وكانت هذه الكلمة الغامضة سببًا في حيرة سماح، تلك التي بدأت تتساءَل: ما المشكلة التي تمنع رجلا من

1.تفاحة العابد، ص 85

2.المصدر نفسه، ص 144

الحبّ [1]. بتكرار اللقاءات، وتزايد معرفة كل منهما بالآخر، ازداد التقارب، وفي أقلّ ما يمكن من الوقت دُعي الكثيرون لحضور حفل الزفاف. وفي مقدمتهم، العمّ سيف، الذي حاول أن يستغل الفرصة لتمرير صفقة ما بمساعدة (عَصْرية) عضو مجلس النواب، مما أدى لبعض التوتر بين الاثنين لاحظته عائشة - أم العريس.

ومضت الأمورُ على ما يرام. وفي ليلة "الدخلة " عرفت الطبيبة سماح ما الذي عناه بقوله: إن لديه مشكلة ما تمنعه من أن يكون الرجل الذي يسْعد المرأة. [2]

وتتعاقبُ المشاهد التي تتمُّ على شدة التصاق سماح بعادل، على الرغم مما يعانيه. يتردَّدان على شارع الوكالات، وعلى مطعم هاشم وسط البلد، ويزوران الأم عائشة، ويسمع عادل للمرة الأولى من عَصْريّة أنَّ الشركات، والوكالات، التي يديرها عمه سيف لصالح أبيه، ذات صلات تجارية مشبوهة، وأنهم، في هذه الحال، عرضة للإفلاس، والملاحقة في أيّ طارئ. تقول هذا اعتمادًا على (أيْمَن) - زوجها - وعلى مصادر خاصَّة أخرى. في الأثناء تتلقى سماح من أحد مستشفيات لندن نتائج التحليلات الخاصّة بوضع عادل الجنسي. وفي التقرير ما يفيد أن النتائج إيجابية، ولكنهم يحتاجون لفحوص أخرى، ولا بدَّ من حضور المصاب. تزامن ذلك مع تظاهرة انطلقت من الدوار الرابع أبلت فيها عصرية بلاءً حسنا، وصفَّق لها كلٌّ من سماح، وعادل، تصفيقا حارًا.

حقيقة التجارة

في لقاء جمع بين عصرية، وعمها سيف، في مكتبه، تحاورا حوارًا متوترًا، فهو يريد عن طريقها تمرير صفقة تختص بعطاء الطريق الصحراوي، وهي ترى في

1.تفاحة العابد، ص 146

2.المصدر نفسه، ص 173

ذلك فسادًا. وينتهي لقاؤهما بما قاله سيف:" بسيطة يا سعادة النائب. هذا آخر زمن. يا عيب الشوم ".

وتابعت عصرية الحديث في هذا الموضوع مع عادل، وسماح، فأخبرتهما أن كل المعطيات التي توصلت إليها تؤكد أن عوّادًا – والدها – على علاقة بالمافيا الروسية، وبعصابة لغسل الأموال، وأن لشركاته صلةً ببعض التنظيمات المسلَّحة. وبعض البيانات تؤكد أن له صلاتٍ متينَةً ببعض أحزاب المعارضة. وهذا يمنعها من التعاون مع عمها سيف لتمرير بعض الصفقات المستعصية. إذ لو تم شيءٌ كهذا، ففيه إساءةٌ لسمعتها من حيث هي عضو في البرلمان. وفي الأثناء ذُكرت إشارةٌ لموضوع عادل تضمَّنَتها عبارة سماح: " سأبذل جهدي قبل سَفرنا إلى لندن " (1)

أسرار النساء

في فِصْلة غير متوقّعة يأخذنا الكاتب في رحلة عبر عالم عائشة التي سبق للقارئ أنْ عرفها، وعرف ما يقوم به عواد - زوجها - من ضرب لها مبرح بالحزام العريض. فقد تزوَّجها صغيرة، وكانت معاملته لها كما لو أنها جارية، يخشى عليها من الطير الطائر، ويُكرِهُها على الاحتشام في أي مكان يكونان فيه، مع أنه نسونجي، كثير الطيْش. وقد باحت في هذا المونولوج بما لا يعرفه غيرُها. ففي أحد أكياس السماد عثرت على سلاح مما كان يتّجر به، ومع ذلك لم تش، ولم تعلن، فكانت مكافأته لها مزيدًا من الضَرْب، والرَكْل، بقدميه.(2) وفي الفِصْلة التي تليها يعرفنا بالطبيب صايل، والد سماح، الذي قدَّم نفسه لعادل موصيًا بابنته. والواقع أن القارئ يفاجأ - بلا ريْب – بهذا، فلم تذكر سماح سابقا أي شيء عن أبيها، وأنه طبيب ثمانيني في أكبر مستشفيات لندن، ومثل هذا الشيء مهمٌ، ولا يمكن

1.تفاحة العابد، ص 206

2.المصدر نفسه، ص 210

إخفاؤه.[1] وفي الفصلة التالية نجد عادلا، وقد تمدَّد على السرير في غرفة العمليات، واثقا من أنّ العملية الجراحية التي سَتُجرى له فيها الشفاء [2] وسيعود بعدها رجلا فحلا مكتملَ الرُجولةِ.

أنمار ابنُ مَن؟

وفي الختام عاد عواد بجواز سفر أمريكي إلى عمّان، ونزل في الفندق، واستقبلته (لَيان) وبعض المستخدمين، ثم أبلغته على عجل بما رتبته تاليا التي سبق للمؤلف أن ذكرها في الفِصْلة الأولى من الرواية، فهي تخبره- أي تاليا - أن الجماعة رأت أنْ تريحه، وأن تسحب الملفات كاملة منه، وان تعْهَدَ لشقيقه سيف بها بدلا منه، فأمثال سيف، في هذه المرحلة، أقدر على إنجاز ما لم تُنْجزْهُ الحروب. وزادته (ليان) همّا بعرضها نتيجة المختبر الذي أجريت فيه فحوص ابنه أنمار على D.N.A وقد تبين أن أنمار ليس ابنه.

ثمة تساؤلات عدَّة تثيرها هذه الحكاية.

فالقارئ لا يتذكر أن (منال) التي أرادها عوّاد أمّا لابنه ليلة الشونة الجنوبية - على ما تتصف به من طيش - جاءها المخاض، وأنها رزقت طفلا سماه أنمار، ولا يوجد مسوّغ يستنتج من الرواية لتحليل لـ D.N.A الخاص به، أو بأنمار، وهذه مفاجأة لا يتوقعها القارئ، ولا تتطلَّبُها وقائع الرواية. علاوة على أن ظهور هذه الشخصية النسائية ليان، وطريقتها في التعامل مع عواد في الفندق، ظهورٌ يستدعي التساؤل، فهي في مقام من يأمر وينهى، وهو في مقام المأمور، على الرغم مما سبق من أضواء سُلّطت على شخصيته، وأظهرته بمظهر الصلب القوي الذي لا يُهزم أيا كان عدوه. وليان مثل تاليا التي لا يعرف عنها القارئ ما يضفي عليها مثل هذا الدَوْر، صحيح أنها تتصرَّف مثل جاسوسةٍ، أو مثل عُضو في

1.تفاحة العابد، ص 213

2.المصدر نفسه، ص 218

عصبة من الجواسيس، وهو دورٌ يحتاج لما يذكّر القارئ به من حين لآخر، ويعزّز الانطباع عن هذه الشخصية، فقد كاد القارئ ينساها لولا إشارة لَيان.

شيءٌ آخر لا بد من التنويه إليه، والتنبيه عليه، وهو تكرار بعض الأسماء التي وردت في روايته ذئب الله: كعصرية، ومنال العاسِر، وعواد، في تفاحة العابد[2] فليس ثمة ما يسوغه.

وواقع الأمر أنَّ الرواية، لكي تقوم على برنامج تتعدّد فيه الأصوات باختلاف زوايا النظر، تحتاج إلى تكرار المتواليات المحكية مرارًا ليستبين القارئ، والدارس، اختلاف تلك الأنظار التي أراد الكاتب أن يسلط عليها الضوء. بيد أنه اكتفى بتجزئة الحكاية على وفق الأشخاص، فأدلى كل منهم بالجزء الخاص به دون أن يتجلى في ذلك اختلافه عما قيل بلسان هذه الشخصية، أو تلك. وصفوة القول هي أن الرواية تُسهم، من حيث أراد الكاتب، أو لم يرد، في الكشف عن الفساد الذي نخر ثورة يناير 65 نخرًا شديدًا أتاح لأبي الأمين، ونظرائه، أن يكونوا قادةً، وأيُّ قادة..

1.انظر كتابنا: روايات عربية تحت المجهر، ط1،عمان: فضاءات،2019 ص 75

في امرأة خارج الزمن
غموض في المكان والزمان

تواصل الأديبة الفلسطينية المقيمة ببيروت سلوى البنا عطاءها الروائي والقصصي. فتوالى صدور أعمالها، ومنها عروس خلف النهر 1972 والوجه الآخر 1974، والآتي من وراء المسافات 1977 ومطرٌ في صباح دافئ 1979 والعامورة – عروس النيل 1986 وحذاء صاحب السعادة(قصص) 2010 وامرأة خارج الزمن (2011) وعشاق نجمة 2015 وست الحسن في ليلتها الأخيرة 2017 وأصل الهوى نسمة 2023 ومن هذا العطاء الموصول نتناول في كتابنا هذا روايتها " امرأة خارج الزمن" (الدار العربية للعلوم (ناشرون) بيروت.

ففيها تسلط الكاتبة الضوء على سلبيات المقاومة في بيروت" بعد أن تحولت البندقية لوسيلة ارتزاق لدى كثيرين من خريجي السجون وذوي السوابق، وقبضايات الحواري والزعران. وحشاشي المصاطب في فلتان بشع ومخيف، خطف الحلم بعيدا". [1] ثم هي هي على سلبياتها وعيوبها في مناطق السلطة الفلسطينية بعيد أوسلو 1993. فنبيل - وهو أحد شخوص الرواية - ينخرط فيما يسمى أمن الثورة، أي في جهاز مخابراتي تابع للمقاومة، وظيفة المجند فيه هي التجسس على أبناء بلاده. لذا تقول بهية لابنها نبيل" يعني رَحْ تشتغل جاسوس

1.البنا، سلوى، امرأة خارج الزمن، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم (ناشرون) ص52

عَ اولاد بلدك؟ يا خسارة!! كنت شايفة فيك بطل مثل الشهيد توفيق، صحيح مصارينا على قدْنا. بس قادرين نعلمك. " [1]

وهذا الاتجاه الذي دفع إليه بتشجيع من أحد أصدقائه (آدم) الذي سبقه لهذه المهنة، بمنزلة الانقلاب التام على ما عرف عن الأسرة، وعن أبيه موسى، وأمه بهية، وإخوته، وأصدقائه الآخرين بمن فيهم(مها) التي شغف بها حبا دون أن تكترث به، ودون أن ترنو إليه بنظرة تتجاوز نظرة الصديق للصديق، وابن الجيران لابن الجيران .

يقول له آدم " إنه المفتاح الذي يقودك لأعماق الآخرين. ويمكِّنُكَ من عصرهم حتى آخر قطرة رفض في عروقهم" [2] . أما عن مها فهي تسخر من نبيل، وتصفه بما لا يحب، وبالغيرة، لأنها تميل ميلا شديدا للأستاذ توفيق، ذلك المعلم الذي عرف في المخيم بماضيه الثوري، وبنقاء سريرته، وبكتاباته السياسية العميقة سواءٌ ما ينشره منها في الصحف والمجلات، أو ما ينشره في الكتب. وفي ذروة هذا التعليق، وفي أثناء انتظار محاضرة الأستاذ توفيق عن الذكرى الأربعين لقرار تقسيم فلسطين استقطب الداعون لها جمهور غفيرًا، وحشدا كبيرًا، جرى اغتياله في تفجير مروّع، فانطلقت إثر ذلك آمال نبيل في أن يكون هو فارس أحلامها، لا توفيق، بعد أن غدا هذا المركز شاغرا باستشهاده.[3]

تحولات

غير أن مها مع ذلك لا تعيره اهتماما، بل الكثير من التجاهل، إن لم نقل الاستخفاف، والازدراء. وتظهر في الأفق شخصية جديدة تعقبها تحولات، وهي شخصية رسام الكاريكاتير رامي.

1.امرأة خارج الزمن، ص 57

2. المصدر السابق، ص 56

3. المصدر السابق، ص 40

و كان سليم والد مها معجبا به جدًا،على الرغم من أن الرجلين مختلفان في موقفيهما من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. فسليم والد مها ناصري حتى " بكى أبي مرات ثلاثا؛ الأولى عندما أعلن عبد الناصر تنحيه عن الرئاسة، والثانية عندما عدل عن تنحيه، والثالثة حين غُصَّ صوت المذيع بخبر رحيله المفاجئ والموجع.. "[1] أما رامي فيستفزه حين يُذكـّره ببعض أوجه القصور التي عرف بها عبد الناصر" على الرغم من أن رامي كان يحترم هذه الرمزية لعبد الناصر لدى أبي، ومكانته، إلا أن الأمر لم يكن يخلو من بعض المناكفة التي يفتعلها رامي، فينجح في استفزاز أبي بمجرد إقحام اسم عبد الناصر في دائرة الخطأ، أو التقصير"[2]. ووافق الأب سليم على خطبة رامي لها بعد أن تعذر قبول المخابراتي عماد[3] وتزوَّجا، ثم سافرا إلى مكان لم تذكره الساردة.[4]

العودة إلى فلسطين

وبعد عشرين سنة من الزواج، تكتشف مها أن رامي ليس أهلا للثقة، فقد تبينت أن علاقته بشادية تطورت كثيرا لدرجة تصمه بالخيانة الزوجية[5] فتعتزم الانفصال عنه والعودة إلى الوطن فلسطين. تاركة رامي وابنه الذي سمته توفيق باسم الشهيد، في إشارة تنم على تعلقها به، وحبها الذي تحتفظ به للراحل على الرغم من فارق السن بينهما، وعلى الرغم من أن الراحل لم يكن يُكِنُّ لها إلا الاحترام والتقدير، بعيدا عن الحب بمعناه الأفلاطوني، أو الإيروتيكي. إذن ها

1.امرأة خارج الزمن، ص 45

2.نفسه

3.المصدر السابق، ص 81

4.المصدر السابق، ص 84

5.المصدر السابق، ص 111

هي مما تعود إلى فلسطين، وعلى الجسر الذي يربط بين ضفتي نهر الأردن يسألها الشُرطي التابع لسلطة أوسلو عن جواز سفرها. فتقدم له الوثائق لكي ينظر فيها على عجل، قائلا والاستغراب لا يفارق لهجته: أين تقصدين؟ فتجيب: إلى يافا.

وها هنا يقهقه الشرطي قائلا باستهزاء خبيث: يافا؟ مرة وحدة؟ قولي أريحا. رام الله أولا. وهنا بدأت الشكوك تساور الشرطة فبعضهم يظنها جاسوسة، وبعضهم يقول ربما كانت إرهابية. وأخيرا تجد نفسها رهينة زنزانة، وعماد الذي أبت الزواج منه هو من يحقق معها لا غيره. ونبيل هو أحد المستخدمين في هذا القطاع الأمني. فيحاول التكفير عن ذنوبه وعن ماضيه الذي يلخصه له أبوه بقوله " تعيش حياتك مرتهنا وتموت ملعونا" [1] محاولا العودة إلى الوضع الذي كان قبل أن ينتسب لهذا الجهاز الأمني. لكن الأمر ليس بهذه السهولة أو اليسر. فتتعثر محاولاته للعودة إلى ماضيه النظيف الذي يعرفه به الجميع؛ عائلته، ومما التي تأبى بالطبع مثل هذه المقاربة بعد أن غدا أبا لطفلة سماها باسمها (مما) في إشارة لتعلقه بها تعلقا يشبه تعلقها هي بتوفيق.[2]

فالاثنان مما ونبيل كل منهما يؤكد للآخر أنه وفيٌّ، على الرغم من زواجه بآخر، أو بأخرى. فهو ما يزال على حبه لها وهي ما تزال وفية لتوفيق. حتى بعد نيف وعشرين عاما مرت على رحيله. وكأن الزمن الذي مضى لم يمضِ. وكأن المرأة التي فُتن بها كثيرون عصية على الزمن، ولا تتأثر بمروره.

طي صفحة المكان

على أن من يُطِلْ النظر في الرواية يلاحظ ما لاحظناه، وهو حرص الكاتبة

1.امرأة خارج الزمن، ص 66

2.المصدر السابق، ص 145

سلوى البنا على طيّ صفحة المكان. فهي لا تذكر أسماء الأمكنة في الحكاية، ولولا إشارة غير مباشرة لساحل المدينة، والبحر، لما خمَّن القارئ أن هذه الوقائع تجري في أحد مخيمات بيروت. ولولا إشارة أخرى غير مباشرة أيضا لما استطاع القارئ أن يخمن في أي مرحلة من مراحل قضية فلسطين تجري هاتيك الوقائع. فالحديث الذي دار بين سليم وموسى عن الذكرى الأربعين لقرار التقسيم قرَّب لنا بعض التخمين عن أن الحكاية تبدأ نحو العام 1987 تضاف إلى هذا إشارة أخرى في الفصل الأخير عندما سألها الشرطي أين تقصدين؟ قولي رام الله أولا. فإن هذه الإشارة تقرّب لنا التخمين فمرورها عن الجسر ربما كان في العام 1997 أي بعد 20 عاما من الاحتفال بذكرى قرار التقسيم الأربعين، وهي المدة التي مرت على زواجها من رسام الكاريكاتير رامي.

والحق أن القارئ لا يستطيع أن يفهم لأي سبب تحيط الكاتبة المكان بالغموض، وكذلك الزمن، مع أنها تذكر في غير موضع أن بعض شخوص الرواية من يافا. وأنهم يتذكرون الماضي مع بعض الأشخاص كالأرمني غارو الذي التقاه موسى مصادفة فاحتضنه، قائلا:" أهلا بريحة الحبايب "[1] وهذا الغموض يكاد يطغى على علاقة رامي بمها. فعندما سافرا لم تذكر لنا الكاتبة إلى أين. ولا أين أقاما هذه المدة، وهي ليست بالقليلة؛ عشرون عاما أو تزيد. وعندما أرادت العودة للوطن سألها رامي عن أي وطن تتحدثين؟ لم تجب، مفصحة عن أنها تود الذهاب إلى الدولة الفلسطينية الوليدة لتجد بانتظارها(آدم) وعمادًا، وأدوات التحقيق والتعذيب.

غموض الشخوص

ينسحبُ هذا الغموض على مستوى الشخوص، فالراوي، أو الراوية

1.امرأة خارج الزمن، ص 59

يذكر (نيرفانا) في غير مناسبة، كذلك يكتنف الغموض شخصية شادية، وعلاقتها برسام الكاريكاتير رامي. علاوة على أن رامي نفسه لا تخلو شخصيته من بعض الغموض، فقد استأثر بإعجاب سليم، واتضح أنه غير أهل لهذا الإعجاب، ولا لثقةِ مما به. فعلاقاته بالنساء متعددة، ولا يكاد يقيم علاقة بإحداهن حتى يعدل عنها لأخرى. والصحيح أن أكثر الشخصيات حضورًا في الرواية هي مما. فمن البداية يتضح أنها مراهقة، تقرض الشعر، وتحب الأستاذ توفيق، على الرغم من أنه يكبرها بنحو 20 عامًا وهي في الخامسة عشرة. تحبه لأسباب كثيرة في مقدمتها تشجيعه لها، وإعجابه بما تكتب، وإعجابها هي بدروسه، وبما يكتبه، ومواقفه الثورية التي يعبر عنها بعفوية، وصدق، كبيرين. وتظل وفيه له بعد اغتياله، وبعد زواجها من رامي، وبعد انفصالها عنه، في الوقت الذي تناساه فيه كثيرون. ومن علامات هذا الوفاء تسمية ابنها البكر توفيق. وحين جاءها رامي بكتاب من كُتُب توفيق عليه إهداءٌ بخط يده " صدمه ذلك البريق الأخاذ الذي بدأ يشع من عينيها فجأة عندما أهداها إياه. كان رامي قد عثر عليه صدفة على أحد رفوف المكتبة التي طالما غزاها باحثا عن الكنوز النادرة. فاستدرك ضاحكا:

"رغم أنه معاصر، لكنه كنز. أليس كذلك؟

تحسَّسَت الكتاب بلهفة ، ومرَّرَتْ أصابعها على حروف الإهداء. إلى ابنتي التي لم أنجب. خفق قلبها بشدة" [1] .

لم تقل لنا الساردة من هي الابنة التي لم ينجبها توفيق؟ ولمَ خفق قلب مما بشدة حين قرأت هذا الإهداء، أهو أهداهُ لها. ولمَ لمْ تشر المؤلفة لهذا، فإذا كان توفيق ومما يتبادلان الإهداءات، فذلك أمر في غاية الأهمية التي لا تعنى بها الساردة.

1.امرأة خارج الزمن، ص110

دفنا الماضي

وبالمقابل ثمة شخصياتٌ تتمتع بالنضج الفني اللافت للنظر، فنبيل على سبيل المثال يمثل النمط المهزوم، النذل، الجبان، من الشخوص، مع ذلك لا يريد قطعا الاعتراف بهزيمته. يحاول مرارا أن يثأر لنفسه، أن يغتال آدم، أو عمادا. إلا أنه يفشل في جل هاتيك المحاولات. وفي النهاية يحاول التحرر من الماضي مخاطبا مها في الزنزانة ساعديني لأتمكن من إنقاذك [1]. وعندما قدم لها ابنته (مها) في المشهد الختامي، قال معتذرا عما سلف:" شوكة تخلف وردة. ربما هي إنجازي الوحيد، والحقيقي. هي المرة الوحيدة التي هزمتك فيها. حين منحت اسمك لطفلتي دون أن تتمكني من الرفض أو الاعتراض.[2] عدا عن هذا ثمة نموذجان سليم، والد مها، وأنيس بائع الكتب.

سردٌ متقطع

ومما يجتذب انتباه القارئ عزوف المؤلفة عن الترتيب الزمني للحوادث المحكية ترتيبًا يتناسب مع دورة عقارب الساعة. أو تتابع فصول السنة. وإنما قامت بدمج هذه الحوادث في متواليانها السردية دمجا يسمح لها بتقديم ما وقع متأخرا على ما وقع متقدمًا. فالمشهد الذي أرادت فيه إعادة الكتاب للعم أنيس، يفترض وقوعه في آخر الرواية، ولكنها تذكره في البداية. وثمة الكثير من المتواليات التي يقتحم بعضها اللحظة التي تجري فيها واقعة أخرى. فعلى سبيل المثال لا الحصر يروي الساردُ ما يجري بين نبيل ولبيبة في أثناء انتظارهما لما سيسفر عنه استدعاء "المسلخ" لهما، بهدف التحقيق من طرف عماد، وأكثر من هذا يذكر الراوي ما جرى بين نبيل ونيرفانا في أثناء روايته لوقائع أخرى.

1.امرأة خارج الزمن، ص 120

2.المصدر السابق، ص 125

ومثل هذا الأسلوب يؤدي لكثير من الفجوات، ومن حين لآخر يتخطاها السارد على نحو مفاجئ. مبقيا القارئ في حيرة من أمره إلى أن ينجلي باستعادة بعض المرويات السابقة، أو بتوقع مرويات لاحقة، ثم يستأنفُ سيره الخطي في الاتجاه التسلسلي للوقائع. وهذا، وإن لم يخل من بعض الغموض، فإنَّ فيه لذة تشحن المتلقي بالفضول، وتنشئ لديه ترقبا، وتوْقًا، لمعرفة ما يتبقى من حوادث، ووقائع، وإلى أي شيء تؤول.

رشاد أبو شاور يكتب سيرته

في وداعا يا ذكرين

بعد أعماله القصصية والروائية: ذكرى الأيام الماضية 1970، وأيام الحب والموت1973 والبكاء على صدر الحبيب 1974ومهر البراري 1974 و بيت أخضر ذو سقف قرميدي 1975 والأشجار لا تنمو على الدفاتر 1975 والعشاق 1978 والرب لم يسترح في اليوم السابع 1986 وشبابيك زينب 1991والموت غناءً 1998 والضحك في آخر الليل 2005 وسفر العاشق 2009 والحب مع البوم(2018) تصدر للقاص الروائي رشاد أبو شاور رواية جديدة عن دار الآداب ببيروت، بعنوان " وداعا يا زكرين " ليتابع فيها ما كان قد بدأه في روايته الأولى أيام الحب والموت[1]. فهو يستعيد فيها وقائع تاريخية مرت فيها قريته، ذكرين، التي تعرف باسمين، هما: زكرين ، وذكرين، وما مرت فيه القرى المجاورة الأخرى ولا سيما بيت جبرين، وعجّور، ورعنا، وكدنا، وتل الصافي، وسواها من قرى جبل الخليل عام 1948 وما قبله بغير كثير من السنين.

وهذه الرواية " وداعا يا زكرين " تختلف عن رواياته الأخرى اختلافا بينًا كبيرًا. فللمرة الأولى يقوم هذا الكاتب بإقحام الأحداث المتعلقة بأسرته هو في نسج الوقائع، جاعلا من هاتيك الأحداث جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. فلم تكُن الإشارة إلى اسم أحد شخصيات الرواية (رشاد) بالإشارة

---

1. للمزيد عن الكاتب ورواياته انظر كتابنا أقنعة الراوي، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2002 ص ص 47- 95

العشوائية أو بالمصادفة، وإنما هي إشارة من الراوي للمؤلف نفسه، وليس اختياره لاسم الأب (محمود) اختيارًا عشوائيا وإنما هو اسم والد الكاتب فهو رشاد محمود أبو شاور. علاوة على أن وفاة زينب (أم رشاد) في حدثٍ مأساوي، وهو سقوطها على (القشاط) المتحرك (لبابور) الطحين – مثلما كان يُسمى – حدثٌ لم يكن من باب التخييل العابر، الذي ابتكرته مخيلة السارد، ولكنها حادثة أدَّت فعلا لوفاة أم المؤلف التي تعرف بالاسم نفسه. وأما الإشارات إلى محمود – والد رشاد- وعلاقته بمعلم المدرسة (علي) الذي يحاول، وينجح في محاولاته، لاستقطاب محمود للانضمام، أو للاقتراب – على الأقل - من عصبة التحرر الوطني[2] ، وهي النواة المبكرة للحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي انضم إليها فيما بعد حنا إبراهيم، وإميل حبيبي، وتوفيق زياد، ووالد (رشاد) وأخرون كثيرون، فهي إشارات تؤكد الصلة بين سيرة المؤلف الذاتية، والرواية، فضلا عن الصلة الكبيرة بينها وبين التاريخ، ومفاصله الكبرى؛ كسقوط الدولة العثمانية بعيد الحرب العالمية الأولى، وفرض الانتداب البريطاني على فلسسطين في اتفاقية سايكس- بيكو، واندلاع الحرب العالمية الثانية، مع تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وظهور المستوطنات الأولى، ككبانية موسى على كثبٍ من ذكرين، واندلاع ما يسمى حرب الإنقاذ، وقدوم بعض الجيوش من مصر والعراق وسورية، واستشهاد القائد عبد القادر الحسيني.

سفربرلك

تبدأ حكاية الراوي- ها هنا – بحرب السفر برلك، فالمشهد الأول فيها هـــو

1.تذكر المراجع أن الإعلان عن ظهور عصبة التحرر الوطني كان في العام 1943 ولكن جذورها تعود إلى عام 1934.

انتظار عودة بعض الذين جندوا في تلك الحرب، وأجبروا على مغادرة بيوتهم، وقراهم، ليقاتلوا إلى جانب الأتراك العثمانيين في أمكنة شتى، بعضها بعيد جدًا فيما تظل أسرهم تنتظر عودتهم بفارغ الصبر، وقد يصيبها اليأس، والإحباط، من تلك العودة. فبعضهم يعود، وبعضهم لا يعود، ويعد مفقودا. وبكثير من التفصيل يرصد الراوي وقائع الحياة اليومية في بلدة ذكرين التي كانت في ذلك الحين بلدة صغيرة كُتب على سكانها، بالرغم من انتمائهم لعائلات عريقة، أن يحرموا من وسائل كثيرة كالماء الذي يضخ للبيوت بالأنابيب، والكهرباء، والمدارس، والطرق المعبدة، ووسائط النقل التي تصلهم بما حولهم من مدن كالخليل والقدس.

وبالمقابل، يرصد الراوي، أيضا، وبأناة، وتؤَدَةٍ، ارتباط الذكارنة بالفلاحة، وبالأرض، ولا يفتأ يذكر بنوع من الحرص عنايتهم بالكروم من الزيتون، ومن الدوالي، ومن التين وغيره.. وحرصهم، أيضا، على العناية بمواشيهم، وما لديهم من طيور ودواجن، وما إشارته لواقعة مصرع البقرة الذهبية الحلوب التي لدغتها الأفعى المختبئة بالتبن، وما كان لمصرعها من أصداء، إلا دليلا قويًا على هذا الحرص، وعلى ارتباط أهالي هذه القرية بالزراعة، والفلاحة، وتربية الماشية، والرعْي.

أجيال

وقد تتبَّع الراوي، بجَلَد لا ينفَدُ، حياة هؤلاء القرويين عبر عدة أجيال، فسلمان هو جد رشاد، ومحمود ابن سلمان، ووالد رشاد، مقابل هذا الثالوث، إذا ساغ التعبير، ثمة مرشد، شقيق سلمان، وهو جد أحمد، ووالد عبد الرحمن، وهم جميعًا ينتمون لأسرة واحدة. ومحمود الذي تزوج من زينب هو الشخصية التي ينصبُّ عليها التركيزُ، وتُوجَّه نحوها الإضاءات. ولذلك أسباب: منها أنه أول من تفتح وعيه على التنظيمات السياسية، واطردت صلاته، وعلاقاته، بعدد من الرفاق. وثانيا؛ لأنه أول الأشخاص الذين عقدوا صلة بين القرية ذكرين، وغيرها من المدن، والقرى، ولا سيما يافا التي اضطر لزيارتها، والتردد إليها، تارة لعلاج ابنه رشاد مما

يُظن أنه إصابة بداء الحصبة على يدي طبيب من الرفاق، وتارة لحضور مهرجانات، وندوات، ومشاهدة السينما، وحضور بعض الأفلام لمحمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش. فهو إذًا النافذة الوحيدة التي تطل منها القرية على العالم الآخر. وسببٌ آخر، وهو أنه من أوائل الذين تنبَّهوا، بفضل رفيقه المعلم علي، لخطر الهجرة اليهودية، وتنبَّه لخطورة العلاقة بين المهاجرين المستوطنين (كبانية موسى) وضباط الانتداب البريطاني، فهمْ يدعمونهم بجلِّ ما يستطيعون، ولا سيما بالسلاح. أما هو، فكان احترازه على بندقية من صنع يوناني إشارة، أيضًا، لاستعداده لفداء الوطن بدمه، وروحه. بيد أن مشاركته في الثورة انتكست بسبب قناعة بعض قادتها بما نَصحتْ به الأنظمة العربية في حينه، من ضرورة وقف القتال، وانتظار ما تُسفر عنه المفاوضات مع الإنجليز.

التبئير

من المعروف أنَّ علماء السرد يُطلقون على ظاهرة التركيز على أحد الشخوص تبئيرا. وقد وضع المؤلف أبو شاور شخصية محمود الذكريني في بؤرة الحكاية، وتبعا لذلك يحتل الذروة في اهتمامات القارئ. فهذا الرجل تزوج من زينب في بدايات الرواية، ولم تكن الأم ترغب بزواجه منها، مما أحدث شرْخًا في العلاقة بين الاثنين، هذا على الرغم من أنها أنجبت له ابنًا لم تكتب له الحياة، وابنًا ثانيا رشاد، ثم بنتا معزوزة. وقد ظلتْ فاطمة- أم محمود - لا تطيق هذه المرأة، وبهذه الأجواء عمَّق المؤلف رصده لتفاصيل الحياة اليومية من باب التركيز على كيد النساء تارة، وعلى خلافات الكنة والحماة تارة أخرى، وعلى الغيرة والحسد الذي يفترس قلوب بعض الناس ممن لا يرغبون في الخير للآخرين تاراتٍ أُخَر. وكان ظهورُ المدرسة في البلدة على يديْ بنّاء من الخليل نقطة تحول في السرد [1].

1.رشاد أبو شاور، وداعا يا ذكرين، ص 212

فبهذه التحولات نشأت علاقة معرفة بين محمود والمعلم علي، وأما تزايد اعتداءات المستوطنين على البلدة، وعلى المزارع، وعلى القطعان، فتعد نقطة تحول أخرى تمهد لظهور المقاومة، والثورة، التي انخرط فيها محمود على الرغم من أنه لا يمتلك سلاحًا ذا فعالية جيدة. وزاد قدوم الجنود المصريين، والسودانيين، وعلى رأسهم الضابط حسن، من تعاظم هذه التحولات، وهيأ القارئ لتوقُّع أزمة في أفق السرد، كمشاركة الأهالي في التصدي لقطعان المستوطنين، ووقوع إصابات في صفوفهم وجرحى، واضطرار بعضهم لبيع مصاغ النساء لابتياع السِلاح، والذخيرة. وهذا كله يؤدي إلى قلب الحياة في القرية الهادئة رأسًا على عقب. وعلى هذا النحو، ونظرا لهاتيك التحوُّلات، يغدو محمود عنصرا فعالا في القتال ضد الإسرائيليين. بيد أن هذه التحولات- مع ما تقوم عليه من تبئير لشخصية محمود (أبو رشاد) - لا تنفصل عن تحولاتٍ أخرى تشهدها البلدة، كذيوع اسم الحاج أمين الحسيني- رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين- وظهور تنظيمات، وأحزاب أخرى منافسة أو مؤيدة، وحركات وطنية إلى جانب الشيوعيّين.

الكارثة

واللافت للنظر في " وداعًا يا ذكرين " تركيز المؤلف الشديد على مجريات الحرب التي انتهت – للأسف – بكارثة، اضطر بعدها الأهالي للجلاء عن القرية، والتوجُّه بحافلات مستأجرة إلى الخليل، على الرغم من أن بعضهم أَبَوْا المغادرة، وفضَّلوا الموت على الرحيل، ومن هنا جاء اختيار المؤلف لعنوان الرواية، فلِسانُ حال المغادرين- وهم يلقون النظرة الأخيرة على بيوتهم التي تركوها، وعلى مزارعهم، وكرومهم- يقول: " وداعا يا ذكرين ".

إيقاع سردي بطيء

ولعلَّ مما يستدعي التنويه، في الكلام على هذه الرواية، هو الإيقاع البطيء للسرد، فهو يروي وقائع كثيرة جدا مع إصرار ظاهر من المؤلف على العناية

بالتفاصيل الدقيقة، مهمة كانت أم غير مهمة. ولا سيما في ما يتصل بحياة الناس اليومية، وممارساتهم المعتادة في ذكرين. فهو يكتب عددا من الصفحات عن إنشاء المدرسة في القرية، ابتداء من تحديد الموقع، وحفر الأساسات، ومتابعة الأهالي للبناء، وهو يرتفع مدماكا تلو الآخر. وارتفاع السور، وقدوم المعلم علي، وتسجيل الطلاب، وتحسُّر محمود لأنه لم يعد صغيرا ليقبل في المدرسة مع الأطفال، واستئناس المعلم علي به، ومخاطبته إياه من النافذة، ثم انعقاد أواصر الصداقة بين الاثنين، وقد يروي ما يملأ حيزا كبيرا في الفصل الواحد عن إعداد الذكارنة لقهوة الفرح. وهذا عند كاتب آخر قد يكتفي منه بإشارة سريعة لا تعدو سطرا أو اثنين. والإمعان في التفاصيل يتكرر في مناسباتٍ شتى ليتحول فيها السرد من سرد قصصي إلى ما يشبه البحث في العادات والتقاليد السائدة، يستوي في ذلك التقدم لطلب الزوجة، والجاهات، والحفلات، والوفاة، والدفن، والولائم، وما يقاس على ذلك مما يعد من المناسبات المتكررة في رواية كهذه ترصد تحولات المجتمع في حقبة زمنية تقارب الأربعين عامًا إنْ لم تزد.

ولا تفوتنا الإشارة لتكرار ظهور، أو اختفاء، شخصياتٍ في الرواية ظهورًا عابرًا، أو اختفاءً سريعا بلا مُسوِّغ، يستند إلى فاعلية سردية تفسر هذا الظهور، أو ذاك الاختفاء. فقد سلَّط الراوي الضوء على الشيخ رزق (الفالوجي)، الذي يدعي الراوي أن شفاء الطفل رشاد تم على يديه، وكل ما قام به هو تمرير أصابع يديه على ساقي الطفل بعد غمسها بزيت الزيتون. ثم إن هذا الشيخ الذي سُلط عليه الضوء بقوة اختفى من الرواية، ولم يعد الراوي لذكره. وثمة أشخاص لا يذكرون في الرواية إلا بغتةً، من غير أن يتضمن السياق تفسيرًا لذلك، وأحد هؤلاء اسمه حرب، وقد توفي، ولم نعرف عنه شيئا قبل تلك الوفاة، وإذا بالراوي يركز تركيزا شديدا على الصداقة العميقة بينه وبين مرشد (عم محمود) وقد بالغ السارد في التركيز على فاجعة مرشد بفقده، مع أن الوقائع السابقة، من بدء الرواية حتى هذا المشهد،

لم يذكر فيها حربٌ هذا على الإطلاق، ولكنه ذكر مرة ثانية عندما اصرَّ بعضهم على دفن مرشد في القبر ذاته الذي دُفن فيه حرب.

التنوع اللغوي

ومن الأمور التي ينبغي التنويه إليها في هذه الرواية ما حَظي به الكاتب من توفيق في إخضاع لغة السرد لمستويات لسانية تناسب الشخوص، فهو لا يتأنَّق، كعادته، في الحوار، على النحو الذي عرفناه في رواياته الأخرى[1]، ويبدو حرصه شديدًا على الاقتراب باللغة من طبائع الشخوص، ومستوياتهم، فكلام النساء في الرواية مختلف عن كلام غيرهنّ، وكلام المثقف، مثل المعلم علي، مختلف عن كلام غيره. فمن الحوار الذي صيغ صياغة تناسُب مستوى هذا المعلم الثقافي، والسياسي، قوله مخاطبًا أبا رشاد: " ماذا نفعل يا رفيق؟ نحن مجتمع متخلف وأناسنا مشغولون بسفاسف الأمور بينما فلسطين تضيع. المعارك في كل فلسطين مع العصابات الصهيونية، وهناك مؤامرة لتقسيم فلسطين [2]" وكذلك كلام الرفيق خليل مختلف عن كلام غيره، وكلام المحامي مباينٌ لكلام القاضي. فالمؤلفُ، في هذه الرواية، يتنقَّل بين مستوياتٍ متعددة، مذكرًا بالطابع البيلفوني للسَرْد لدى ميخائيل باختين. علاوة على ذلك تتبَّع استعمالات بعض المفردات التي شاعت في تلك الحقبة، ولا تخلو من دلالة على المستوى اللساني الدارج، مثل روتر بدلا تويتر – وكالة الأنباء المعروفة- والأوتومبيل للسيارة، والبابور للمطحنة، والداية للدلالة على القابلة، والحكيم للدلالة على الطبيب. ومثل هذه المفردات أضافت

1.وهذا يبدو واضحًا في روايته سأرى بعينيك يا حبيبي (دار الآداب 2014) وقد عالجنا ذلك في أساسيات الرواية، ط1، عمان: دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع، 2015 ص 33- 41 وانظر بصفة خاصة ص 40.

2.وداعا يا ذكرين، ص 286

للتنوع اللغوي في الحوار تنوعًا على المستوى الدلالي يُفْصح عن تنبُّه الكاتب لما عرفته البلاد من تغيير في المستوى المعجمي العام.

صفوة القول، وزبدة الحديث، أن هذه الرواية تمثل علامة فارقة في مشروع الكاتب الروائي، فهي تجمع بين السيرة، والتاريخ، والسرد الروائي، في لغةٍ تعدُّ نَقْلة كبيرة في أسلوبِ الكاتب إذا قورنتْ برواياتهِ الأخْرى.

---

*.للمزيد انظر كتابنا رشاد أبو شاور وآثاره في القصة والرواية، ط1، عمان، دار الخليج للطباعة والنشر والتوزيع، 2024 .

أبو شاور يواصل سيرته في
الحب وليالي البوم

على الرغم من أن المتخصصين في الرواية، وعلم السرد، يرفضون أن تحسب السيرة الذاتية التي يكتبها روائيٌ ما في الأدب الروائي، ويستبعدونها من هذا التجنيس، فإن الروائيين العرب ما فتئوا يخلطون بين الرواية، من حيث هي فن نثري يعتمد على التخييل لا على التوثيق، والرواية ذات الطبيعية المتخيلة fiction.ويعتمدون على مرويات تتصل بذات المؤلف إنسانا وكاتبا. فيكون تارة هو الراوي، وطورا البطل، إلى جانب كونه ساردًا، وفي بعض الأحيان يكتفي الكاتب بكونه أحد الشخوص، واللاعبين الرئيسيين في الحكاية. ومما يستحق الذكر أن الباحث عبد الله إبراهيم نشر مقالا استقصائيا في إبريل من العام 1998 في المجلة الفصلية العُمانية [نزوى] ذكر فيه عددًا غير قليل من الروايات التي نُشرت لمؤلفين نابهين بعضُها يستحق أن يحسب في السيرة الذاتية، لا في الرواية، وبعضها مختلفٌ فيه. فمن هذه الروايات رواية حديقة الحواس لعبده وازن (1993) وخطوط الطول .. خطوط العرض.. لعبد الرحمن مجيد الربيعي 1993 و بيضة النعامة لرؤوف مسعد 1994 ورواية الشطار لمحمد شكري 1994 ورواية بهاء طاهر الحب في المنفى 1995 وأصداء من السيرة الذاتية لنجيب محفوظ 1996 وخلسات الكرى لجمال الغيطاني 1996 وقبل هذه وتلك رواية بقايا صور لحنا مينة 1990وفاتته الإشارة لروايات أخرى بالطبع، ومنها رواية

اعترافات كاتم صوت لمؤنس الرزاز، وسرايا بنت الغول لإميل حبيبي، وغيرها.. مما لم يطلع عليه لأسباب معروفة، في مقدمتها راهنية الظاهرة المدروسة.

ففي روايته « الحب وليالي البوم « (الشروق، عمان، 2018) يواصل الكاتب المُخضرم رشاد أبو شاور كتابة سيرته الذاتية، وسيرة أبيه محمود سلمان أبو شاور، التي بدأها في « وداعا يا زكرين[1]

بادئا بلجوء أهالي ذكرين – إحدى قرى الخليل- إلى موضع قريبٍ من بيت لحم اتخذوه مخيمًا استقروا فيه استقرارا مؤقتا على أمل أن يعودوا بعد أسابيع أو أشهرًا على الأكثر . وفي هذا المخيم تواجه أسرة (أبو شاور) الكثير الجم من المتاعب. هي وغيرها من العائلات والأسر، التي كتب عليها، مثلما يقول المعلم علي، أن تبقى في مخيمات اللجوء، وهو البلاء الذي أصاب أهالي القرية، وغيرها من القرى، على رأي محمود أبو شاور[2] الذي أسند إليه المؤلف دورا يشبه دور البطل في الدراما. يقول في هواجس ساورته فجأة « هُيّءَ له أنه يسمع صوت عمه مرشد وهو يرتفع عاليًا في أثناء حراثته للأرض، وغرسه الأشجار المثمرة. وأنه يرى بيوت ذكرين، ومدرستها، ويرى المسجد الذي بُني بحجارة نظيفة، ولم يصلِّ فيه الأهالي سوى جمعة واحدة. من كان يخطر بباله أننا سنُطرد من قريتنا ونتشتت في المخيمات حيث البرد والوحل والغبار؟ لماذا نحن دون غيرنا من الناس يحدث لنا هذا، من أين جاءنا هذا البلاء؟ [3]

وفي هذا الرواية عدَدٌ من الشخوص يكاد لا يحصى، ويكفي أن نذكر للدلالة على ما يشبه البطولة الجماعية لهذه السيرة – إذا جاز التعبير- إلى جانب محمود

1.المجلة الثقافية، عمان، الجامعة الأردنية، ع 94، س2019، ص ص 193- 198.
2.أبو شاور، رشاد، الحب وليالي البوم، ط1، عمان: دار الشروق، 2018، ص402
3. الحب وليالي البوم، ص 402

سلمان، والد رشاد، أبا فارس مختار المخيم، وابنه فارس، والشيخ يونس، وسالم الدوايمي، والمعلم علي – وهو من شخصيات وداعا يا زكرين- وأحمد العجوري، وأبا صقر اللحام، والمعلم مصلح، الذي يعاني مرضا يؤدي إلى وفاته، والمعلم نمر، ورزق الفوالجي، وأحمد المنشاوي، وأبا إسماعيل تيلخ، وهو من شخوص وداعا يا زكرين أيضا. وعبد الرحمن ابن عم محمود، ووصفي أبو طبر، مختار مخيم النويعمة، الذي انتقلت إليه الأسرة. وحياة بدر، زوجة د. عبد الرحيم بدر – مديرة المدرسة - والرفاق محيي الدين، ومنير عسل، ويوسف سرياني، وأحمد أبو لحاف، ومحمد سعادة، وفايز شهوان، وأبا روحي، وهو قومي عربي. وأبا فرج. ومحامين يذكرهم باسمائهم الحقيقية، وهم: يحيى حمودة، وإبراهيم بكر، وعبد المحسن أبو ميزر.

وثمة شخصيات نسائية عدة؛ كفاطمة الجدة، وزريفة خالة رشاد، وفضة، ونظمية، ووفيقة، وصفية. وشخصيات تؤدي دورًا في ضبط الأمن في المخيم، أو في قمع الاحتجاجات، وتعذيب الموقوفين، ومن هؤلاء العقيد بكر بيك، وأبو عناد – جلاد السجن- وأبو مروان شاويش المخفر، وأبو هاني، وفايز الصّخَريّ قائد وحدة الفرسان. وإلى جانب هذا العدد الجم من الشخصيات تحسن الإشارة لأناس آخرين لم تكن لهم آثار ملموسة في الحكاية، كالخياط خالد، والمعلم عدلي عرفات، وسعيد عازف الأرغول، وحسن أبو سند راعي المرسيدس.. ورجاء أبو عماشة التي سقطت شهيدة في مظاهرة وأصبحت رمزًا، ورُفعت صورها في شتى الأماكن [1] وخميس صاحب المقهى إلخ... ومثل هذا العدد الضخم من الشخصيات يتطلب من القارئ وعيا يقظا مستمرا لمتابعة الأدوار، والوظائف،

1.الحب وليالي البوم، ص 376

التي يقوم بها هؤلاء عبر مساحة من الزمن ليست كبيرة، إذ تمتد الوقائع من عام 1948 إلى نهاية العام 1957 وهو العام الذي ألفت فيه وزارة سليمان باشا النابلسي، وأقيلت بعد أقل من ستة أشهر، اعتقل على إثرها الكثير من الحزبيّين، أو اضطروا للمغادرة سرا، واللجوء لدمشق، أو القاهرة.

فضاء السيرة

ومما ينقذ رواية (أبو شاور) هذه من التشتُّت بسبب هذا العدد (نيف و60 شخصية) فضاءُ السيرة. فوقائعها تجري في مخيم الدهيشة [1] ومقهى المخيم [2] وأرطاس، على كثب منه، وبلدة (الخَضِر) ومخيم(الفوّار) و(النويعمة) قرب أريحا [3] وأريحا البلد، ومخيم (عين السلطان) وهي بقعة جغرافية ضيقة تصلح إطارا يلم شتات الحكاية. ويضفي عليها تماسكا واضحا. والشيء الوحيد الذي يشذ عن هذه الشبكة من الأماكن هو التوجه إلى دمشق، حيث (المرجة) و(فندق الزهرة) و غيره، ثم عودة رشاد ذي الأربعة عشر ربيعًا إلى أريحا قادمًا من درعا عبر عمّان.

الذات والآخرون

واللافت للنظر اختلاطُ وقائع هذه السيرة، بما فيها من جوانب ذاتية تتصل بعائلة محمود سلمان، والمجريات العامة، التي لا تخلو من مفاصل تاريخية، يتذكرها الراوي تذكرًا سريعًا تارةً، وفي شيء من الرويّة، والتأنّي، تارةً أخرى

ففي البدء، ولما كانت واقعة النكبة ما تزال الجراح التي سببتها تنزفُ دمًا حارًا، تبرُز حكاية سالم الدوايمي، الذي لا يأنس للحياة في المخيم، ويصر إصرارًا كبيرًا على مناوشة الإسرائيليين بالسلاح، والتسلل للقيام بعمليات فدائية، ففي

1.الحب وليالي البوم، ص 35

2.المصدر السابق، ص 81

3.المصدر السابق، ص ص186- 191

رأية « ما لنا غير السلاح. لازم نستمر في القتال » [1] وعندما سُئل: من أين نأتي بالسلاح، أجاب « بقليل من السلاح نقلق راحتهم، وننشّف ريقهم. نجعلهم يخافون، ولا يعرفون من أين تأتيهم الضَرَبات » [2] وردًا على سؤال محمود عن عدد أنصاره، يقول « العدد لا يهم. المهم أنْ نستمر » [3]. وحين يئس من محمود أبو شاور وانضمامه، طلب منه التبرع بالبندقية التي قاتل بها قبل النكبة « سيحضر شخصٌ نثقُ به ليأخذها » [4] وقد جاء أحدهم فعلا، وتبرع أبو رشاد بالبندقية على الرغم مما لها من ذكريات عزيزة في نفسه [5]. ومن الوقائع المتّصلة بهذا الدوايمي استشهاد عثمان، الذي تسلل هو الآخر، واعتلى سقف منزله في ذكرين، وواجه المستوطنين برشاش (ستن) ولم يتوقف عن إطلاق النار إلا عندما نفدت الذخيرة، وخرّ شهيدًا[6].

السيرة والتاريخ

وبرزت على المستوى العام في هذه السيرة وقائع تاريخية، كالانتخابات البرلمانية التي أجريت في العام 1956 بمشاركة الأحزاب. وترشيح كل من د. عبد الرحيم بدر، ود. يعقوب زيادين. وهما شيوعيان. وبهجت أبو غربية، وعبدالله نعواس، وهما بعثيان. وتناول الراوي الشعارات التي تداولها مؤيدو المرشحين. بيد أن السقوط الذي مُنِيَ به مرشحو الحزبين دفع بهم لاتهام حكومة توفيق أبو الهدى(1894- 1956) بالتزوير. مما أسفر عن اندلاع الاحتجاجات التي رافقها

1.الحب وليالي البوم، ص 70
2.المصدر السابق، ص 111
3. السابق، ص 112
4.السابق، ص 114
5.السابق، ص 130
6. السابق، ص 221

العدوان الثلاثي على مصر.[1] ومما زاد الطين بلة اعتقال عدد من الشيوعيين بمن فيهم محمود أبو شاور – والد رشاد- [2] وتوالت بُعيْدَ ذلك التظاهراتُ ضد مشروع حلف بغداد. وهذا الحلف- في نظر الرفاق- يعادي الاتحاد السوفياتي، ويمالئ الغرب بزعامة إنجلترا. [3] وبسبب تلك الأحداث أقيلت حكومة أبي الهدى، وظهر حزبٌ جديدٌ بزعامة سليمان باشا النابلسي، باسم « الحزب الوطني الاشتراكي « [4] ولا يُخْفي الراوي دهْشتهُ من كثرة أنصاره، ومن تدافع الناس للانضمام له، ولهذا فاز عدد كبير من مرشحيه في الانتخابات التي أجريت عام 1957. وهي التي فاز فيها الكركي يعقوب زيادين عن محافظة القدس، واستبعد عبد الرحيم بدر من الترشيح لسببٍ غامض. ولا يفوت الراوي أن يذكر- في ما يذكره - المسيرات التي انطلقت في أريحا وغيرها تأييدا لثورة الجزائر [5].

على أنَّ الرياح لا تجري بما تشتهيه السفن، فقد أقيلت حكومة النابلسي (1908- 1976) بعد أقل من ستة أشهر [6] إذ ألفت في 29 تشرين الأول 56 وأقيلت في 10 نيسان 57. وقيل إنَّ الأسباب تعزى لمحاولة انقلابية كشفت في الساعات الأخيرة. وانتشر التهديد باعتقال الحزبيين، وحُذّر الكثير منهم، مما دفع بمحمود أبو شاور، الذي لم يمض على زواجه الثاني إلا أسبوعٌ واحدٌ، للتفكير بالنجاة، فاختار دمشق ملاذا تجنُّبا للحبس، والتعذيب، على يدي أبي عناد وبكر فيما فرضت الإقامة الجبرية على النابلسي[7] .

1.الحب وليالي البوم، ص 255

2.المصدر السابق، ص 272

3. السابق، ص 392

4.السابق، ص 383

5.السابق، ص 389

6. السابق، ص 419

7.السابق، ص 424

وفي دمشق يلتقي رشاد ذو الأربعة عشر ربيعًا بأبيه، ثم يعود إلى أريحا قادمًا من درعا عبر عمّان. ويلاحظ القارئ أنَّ رشادًا في نهايات السيرة يصرح مباشرة بموقعه في الأحداث. فقد تنقَّل بسرعة من دور الطفل الذي يعتمد على الآخرين في كل شيء إلى دور المراهق الذي يبلغ سنَّ الاحتلام، ثم إلى دور العاشق الذي يلاحق (زينب) وهي الأخرى لا تتردد في إغوائه.. وربما غازلها، وغازلته، على استحياء، في طور مبكر على العشق، وزاده تعلقا بها اسْمُها، وهو اسم أمه التي توفيت - عليها الرحمة - في حادثة بابور الطحين، وهي الحادثة التي وصفها لنا في وداعا يا زكرين.

العامي والفصيح

وعلى مستوى الأساليب السردية التي تتجلى في هذه الرواية، والتقنيات الروائية، يُلاحظ الدارس عزوف المؤلف عن التوغل في السرديات الحداثية، وهو محقٌّ في هذا، لكون الحب وليالي البوم أقرب إلى السيرة منها إلى الرواية. وقد غلب عليها الحوار الذي يتسامح فيه كثيرًا على صعيد اللغة، مُكثرًا من المفردات التي يستخدمها الناسُ في حياتهم اليومية، بما في ذلك تلك التي تخدشُ الحياء. فهو لا يتوخى انتقاء كلماته من المعاجم، ولا يراعي التقعُّر، ولا يجد حرجًا في أن يقول في عبارة واحدة « قبّلهُا أبو رشاد بعد أنْ باسا يدَه « [1] فهو في أول العبارة فصيح، وفي الجزء الثاني منها عامي. وهذا يضفي على حواره الحيويَّة ويساعده على تحقيق الإيهام بالواقع. ولم يفُتْ المؤلف التنويع في الحوار، واستخدام الحوار الفردي بين الشخص وذاته، فيما يعرف بالمونولوج. فحين يلاحظ المعلّمُ مصلح على وفيقة شيئًا يقول في نفسه « هذه البنت تظن أنني غير منتبه لها. إنني إنني أحضر وأجلس هنا لأراها.. ولكنني مريضٌ. ولا أريد لها أن تتعلق بي

1.الحب وليالي البوم، ص 184

ثم أتركها للحسرة والألم. أشعر بأن أيامي ليست كثيرة في هذه الدنيا. « [1] فهو، بهذا الحوار غير المباشر، يريق الضوء على ما يدور في ذهْن الرجل، ويتنبأ بوفاته لاحقًا، وهذا ما كان. وفي موقع آخر يقول على لسان صفية، وقد وقعت عيناها على محمود مرارًا « أنت أرمل ووحيد ليس لك إلا هذا الابن (رشاد) وأنا شبه أرملة. وليس لي سوى الولدين، والحزن والانتظار بألم « [2] وما بين صفية، ومحمود، تجاوبٌ مونولوجي « هل وقعتُ في هوى هذه المرأة الجريئة، الجميلة، وهي التي تنتظر زوجًا طال غيابُه « [3]

حشو بلا مقابل

وأيًا ما يكن الأمر، فإن الدارس لا يفوته أنْ يلاحظ على هذه الرواية- السيرة السَلِسَة، ما فيها من مشاهد ما كان لها أنْ تظهر، فقد آلى المؤلف على نفسه إلا أن يذكر بالتفصيل المملّ جلَّ ما جرى في مخيمي الدهيشة، والنويعمة، سواء اتصلت تلك المُجْرياتُ بالرواية – السيرة، أم لا. فالعُرْس الذي توقف لديه الرواي [4] واستمرت مروياته عنه، ومحكياتهُ، حتى صفحة متأخرة [5] لا ضرورة له قطعًا، ولو حُذف من المتْن، لما تاثرت السيرة، كذلك المحاكمة التي بدأ استعراضُ مجرياتها ص 339 واستمر إلى ص 348 فيها الكثيرُ مما هو غير ضروري. علاوة على أنَّ قصة المعلم مصلح، والمعلم عبد الفتاح، ووفاتُها حكايتان لا تخدمان الرواية. ومثل ذلك وفاة نظميّة [6] ابنة إسماعيل، فقد جعل من

1.الحب وليالي البوم، ص 119
2.المصدر السابق، ص 231
3.السابق نفسه
4.السابق، ص 351
5.السابق، ص 355
6.السابق، ص 240

وفاتها حدثا مهمًّا مع أنها لم تُذكر في الرواية. وقد يتساءلُ القارئ عن السبب الذي دفع بالكاتب لاختيار العنوان « الحب وليالي البوم» وهو تساؤل له ما يسوغه. فالحكاية لا تبعث على التشاؤم، إذ انتهت بتفتُّح وردة الحب لدى كل من رشاد وزينب، وذلك شيء يوحي بالفرح، ولا يترك مكانا للبوم في هذا السياق.

حياة حصار لفيصل حوراني
وإشكالية التجنيس

بعد رواياته: المحاصرون، وبير الشوم، وسمك اللجة، والصخرة وما تبقى، يلفت الكاتب فيصل حوراني النظر بروايته «حياة حصار» (دار التنوير، رام الله، 2013) ذات السارد المشارك الذي لا يفتأ يستعيد الوقائع، والحوادث، ويرويها مرتبة ترتيبًا خطيًا تصاعديًا من البدء إلى الخاتمة، لما انتهى به الأمر بترحيله من بيروت على متن طائرة متجهة إلى قبرص [1].

وفيصل حوراني، في هذه الرواية، يحاول إقناع القارئ بخلوها مما يقع فيه الروائيون، في العادة، من إقحام شخصياتهم، وتجاربهم الذاتية، في المحكيات السردية. وعلى الرغم من أنَّ هذه المحاولات جاءت محبوكة حبكا جيدًا، ومقيسة على الحوادث، والمُجريات، والشخوص، كما لو أنها قيست بالمسطرة والفرجار، إلا أن القارئ، الذي لديه بعض الإلمام بخلفية الحكاية – حكاية حصار بيروت في حزيران 1982 – وهو الحصار الذي دام نيفا وشهرين أُجْلِيَ على أثرهما المقاتلون الفلسطينيون من بيروت الغربية على متون سفُن رافقتها بوارج فرنسية، وأمريكية، وتم توزيعهم على أنحاء متباعدة. فيما تم إبقاء المؤسسات ذات الطابع المدني مثل معهد الدراسات الفلسطينية، ومركز الأبحاث، وبعض الأشخاص العاملين فيها ممن آثروا البقاء في بيروت خفيةً، أو بموافقة الجهات الضامنة للاتفاق الذي أبرم بعد مفاوضات مكوكية شاقة، شاركت فيها أطرافٌ دولية، وإقليمية

1.حوراني، فيصل، حياة حصار، ط1، رام الله: دار التنوير، 2013 ص 206

متعددة [1]. نقول: إن هذا القارئ لن يطول به الأمر، ولن يصعُب عليه أنْ يكتشف ما في هذه الرواية من دلائل الحضور المُهيْمن للبُعد الشخصي.

السارِدُ هو المُؤلِّف

فكلما أوغل القارئ في تتبع المجريات، ازداد يقينا من أنَّ السارد في الرواية هو المؤلفُ نفسه، الذي أسند إليه الكاتب دور البطل بالمعنى التقليدي لهذا المصطلح. وأنَّ ما ذكر من وقائع، إن لم يكن هو محورَها، فإن أشخاصًا مقرَّبين منه هم المحور الذي تدور حوله. فأبناء الراوي ثائر، ويافا، وغزة، يجري تسليط الضوء عليهم لأنهم أبناؤه، ولأنهم أسهموا في الدفاع المدني تارة، وفي معالجة الجرحى تارة، أو تدَرَّبوا على استعمال السلاح، وارتدوا البزَّة العسكرية تارة أخرى[2] . وجرى ترحيلهم في آخر المطاف إلى دمشق. وقد أفلتت من الراوي إشارات متكرِّرة إلى مغادرته غزة، ولما يبلغ العاشرة من عمره. وتنقل بين دمشق وبيروت. وذلك شيءٌ يتفق مع معلومات القارئ عن الكاتِبِ الذي ذكر ذلك مفصلا في سيرته الموسومة بالعنوان " دروب المنفى". أما بيت القصيد في حكاية هذا السارد، فيتمثل- أولا- في كيفية التأقلم مع ظروف الحصار الخانق في بيروت الغربية، مع انقطاع إمدادات المياه، والتيار الكهربائي، وندرة المواد الغذائية، وشحّ الوقود وتقنين البنزين، وفي ذلك ما فيه مما يعيق الحركة في مدينة كبيرة كبيروت. وقد زاد الطين بِلةً فتورُ العلاقة بينه وبين زوجته ياسمين، التي تركته في هذه الظروف، وغادرت إلى دمشق، ولم تعد إلا في نهاية المطاف بعد أنْ تناقلت الأخبار، والصحف، والفضائياتُ، نبأ تفجير معهد الدراسات الذي أودى بحياة الكثير من العاملين فيه، فجاءت لكي تطمئن عليه من باب رَفْع العتب.

1.حياة حصار، ص 97

2.السابق، ص 90

عبد الرزاق

إلى جانب هذا كلّه استمرارُ القصف جوًا وبرًا وبحرًا، من حين لآخر. وقد حلَّ في ضيافة السارد شخص ثقيل الظل هو عبد الرزاق[1] . وكان قد استقال من معهد الدراسات ليعمل في إحدى الصحف. وهذا الضيف تسبب في الكثير من الإشكالات للسارد، كاستنزاف حصته من المياه، والتهام الأطعمة، والمعلبات التي يحتفظ بالقليل منها في الثلاجة انتظارًا لقدوم أبنائه. أو الإساءة لعلاقاته بالآخرين، ومنهم الجيران.

إطارٌ فنّيٌ

وقد عَمَد المؤلف لاستخدام إطار فني يُقصي عن الحكاية شُبْهة السيرة، فوظَّف فيها عددًا من الشخوص، منهم نجاة، الصحفية، وريم، ابنة صاحب المطعم، ونورما مدرسة الإنجليزية، وهي بريطانية تقيم في الشقة المقابلة لشقته. وجانيت التي تحيط بها شكوك، بسبب علاقتها بجاسوس بريطاني متقاعد يقيم ببيروت، ويتردَّدُ إلى فندق الكوميدور. ولكن ثبت لنا أنها ليست من الجواسيس، بل هي متضامنة مع الفلسطينيين، وقد لقيت حتفَها في تفجير العملاء الإسرائيليين لمبنى معهد الدراسات. وكان الراوي قد استطرد في تناوله لحكايتها، وحكاية أمها مع مرض انفصام الشخصية[2]. ومنهم لبنى التي وصلتْ إلى بيروت من الأردن للدراسة في الجامعة الأميركية[3]. وفيها تعرفت على شاب فلسطيني نشأت بينهما علاقة غرامية تُوِّجت بالزواج. غير أن الزواج لم يدم طويلا، فقد استشهد في عملية فدائية، ونذرت نفسها للعمل النضالي الفلسطيني في لبنان. فكانت تأبى

1.حياة حصار، ص 35

2.المصدر السابق، ص 141

3.المصدر السابق، ص ص 50- 51

الرجوع للأردن، وترفُض الزواج من أيّ رجُل بعد الشهيد حتى لقيت حتفها في التفجير الذي دمَّر مركز الأبحاث، شأنها في ذلك شأنُ نجْوى، وجانيت، وغيرهما من المتردّدين إليه أو العاملين فيه.

شخوص

علاوة على هذه الشخصيات ثمة شخصياتٌ أخرى حظيت من الكاتب ببعض التركيز . ومنها زياد، وهو كاتب قصة يمتلك سيارة شبه خُرْدة، كثيرًا ما أسعفت الراوي في تنقلاته من مكان لآخر. ولزياد هذا آراؤه التي تضفي على الحوار شيئا من الفكاهة، والسخرية المُضحكة، والحذَرَ، في آن، ولا سيما من جانيت، ونورما، جارة الراوي. وثمَّة شخصيات لا يشك القارئ في أنها شخصياتٌ حقيقية، ولكن المؤلف استبدل بأسمائها أسماءً أخرى للانسجام مع العمل الفني التخييلي، كالمدفعْجي عبد الكافي[1] والدكتور صابر، والضابط أحمد المسؤول عن سلامة رئيس اللجنة العلمية. وأبو خالد اللاجئ السوري الذي قابله في غرفة التحقيق قبيل ترحيله إلى قبرص. وأبو جهاد، وجهاد، ولورا، وهم لبنانيون، وأبو ريم صاحب المطعم، وسامر الروائي الأردني [2] الذي آثر في نهاية المطاف الرحيل إلى قبرص على الرغم من أنه يستطيع البقاء في بيروت، أو العودة إلى الأردن.

مجتمع الرواية

وهكذا يتضح للقارئ أنَّ مجتمَعَ الرواية « حياةُ حِصارٍ» مجتمَعٌ يلائم الحكاية بما فيه من تنوع. فبعضهم لبنانيون. وبعضهم أجانب. وبعضهم فلسطينيون، أو عربٌ، من بلدان أخرى. ومن المشاهد المتكرِّرَة اجتماع الراوي بشخصياتٍ بارزة

1.حياة حصار، ص 38

2.المصدر السابق، ص 65

في القيادة، مثل القائد الذي لا ريب في أنه يعني به الراحل ياسر عرفات. والأستاذ عوني المدير العام لمعهد الدراسات. والأستاذ جلال، رئيس تحرير الصحيفة التي اعتاد الراوي على نشر مقالاته، ومعالجاته السياسية، فيها، يوميًا، أو مرتين في الأسبوع. كذلك الشاعر الغزّي الذي ربما يكون معين بسيسو. والشاعر الآخر الذي آثر البقاء ببيروت، ونظنُّه محمود درويش. وهو يشير في عدد من المشاهد لمثقفين، وصحفيين، وإعلاميين، وإذاعيين، يلتقون مع القائد العام، أو مع أحد مساعديه. وهي مشاهد تؤكدُ، بصورة من الصور، أنَّ الراوي في هذه يروي وقائعَ، أو شهاداتٍ، من سيرته الذاتية، وتجاربه الشخصية، التي لا أثر فيها للخيال السردي، إلا نادرًا. ولا يفتأُ يحاول – قدر الإمكان- إخفاءَ هذه الحقيقة وراء نقاب نُسج بطريقة ذكية ليبدو فيها وكأنه من نسْج الخيال. ولكنْ، أيُّ خيال هذا الذي يتحدث عن وقائع ما زال الناس يتذكرونها، ويتذكرون ما كُتبَ، ونُشر عنها من تفاصيل، في الصحف، وفي وسائل الإعلام، والفضائيات، أو في دراساتٍ، وتقاريرَ، وأبحاثٍ مزوَّدة بالأرقام، والوثائق، ولا سيما تلك التي تتصل بمقتل الرئيس الذي نصَّبه على لبنان برلمانٌ منتهي الصلاحيات تحت حراب الإسرائيليين، وإشرافهم؟؟

صحيحٌ أنَّ المؤلف – حوراني- لم يذكر اسم الرئيس (بشير الجميل) ولا اسم شقيقه الذي خلفه على الكرسي(أمين) ولم يشر لوجود وزير الحربية الإسرائيلي شارون بين أتباعها ليلة تنفيذهم لمذبحة مخيميْ صبرا وشاتيلا. ولم يذكر بالتفصيل زيارة إيهود باراك لبيروت الشرقية مع عدد من ضباط الموساد، واجتماعه ببعض اللبنانيين، وحثّهم على إبعاد من تبقوا من الفلسطينيين، وعلى اجتثاث مركز الأبحاث بتفجير كالذي سبق تدبيرهُ للسفارة العراقية. ولكن هذا كلَّه لا يعني أنَّ السرد في « حياة حصار» قائمٌ على التخْييل المَحْض. لأنَّ الإشارات التي وردت في متن الحكاية، لذلك كله، كافيةٌ لاستثارة مخيلة القارئ، الذي لا بد أن تكون

لديه بعض الارتباطات المفَسِّرة لهاتيك الإشارات الموجزة، فما ذُكر يحيلنا إلى ما لم يُذكر، لا بصفة موجزةٍ، بل بما تحتمله من تفصيلات.

الرواية والتاريخ

وهذه الإشاراتُ تعزّزُ بالطبع الانطباع بأن هذه الرواية " حياةُ حصار " ليست رواية نقيَّة التجنيس بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنها سيرةٌ روائية أحكمتْ خيوط نَسْجها إحكامًا يجعلها تبْدو رواية، أو كالرواية. تاريخية، أو شبه تاريخية. فمن الدلائل على تاريخيَّة هذه الرواية- وإنْ لم تكن في حاجة لذلك- ذكرهُ لبعض المسيرات التي شهدتها بيروت في أثناء الحِصار، والتئام الجموع المحتشدة عند جسر الكولا، يتقدمُّها الشاعر الكبير الذي لم يذكر اسمه من قبيل التمويه. ويذكر قدوم الوسيط الأميركي(فيليب حبيب) الذي أضْرَبَ عن ذكر اسمه هو الآخر.[1] وقدوم وفد الفنانين المصريّين من القاهرة للتضامن مع المقاتلين الصامدين، وعلى رأسهم الفنانة السينمائية المعروفة سامية حمْدي، وهو اسم بديلٌ – في ما نظنُّ- للممثلة نادية لطفي [2] و [3] مع متابعة الحديث عن المفاوضات، والإعلان عن التوافُق، وتوقّف القصْف مع استمرار التفجيرات من حين لآخر بسياراتٍ، وشاحناتٍ، مُلغَّمة. ويرصُد الكاتب موقف اللبنانيين من الاتفاق. فهذا أبو ريم يخشى إفلاس مطعمه بعد رحيل المقاتلين[4] وذلك لأنَّ زبائنه أكثرُهم فلسطينيون. عدا عن قلقه على ابنته ريم، التي تهيم بأحد المقاتلين حبًّا، وتخشى أن يكون بين المرحَّلين إلى بلد بعيد، وهي ابنته الوحيدة [5].

1.حياة حصار، ص 15

2.حياة حصار، ص 57

3.حياة حصار، ص 50، و ص 144

4.حياة حصار، ص ص 107- 110

5.حياة حصار، ص 108

وقدوم مجموعة من الكتائب للسؤال عن الراوي، وعن مواعيد انصرافه، وقدومه، مما يثير الشبهة بنوايا هذه العصابة، وأنها تخطط لاغتياله [1]. وازدادت هذه المخاوف، والشكوك، عندما أبلغه حارس البناية أبو طانيوس بوجود علاقة لهذه العُصابة بجارته الإنجليزية نورما [2]، وقد رصد الراوي أيضًا التحضيرات لترْحيل المقاتلين في عشرة أيام على نحْو ما ينصُّ الاتفاق[3]. بادئا برحيل زياد إلى تونس في السفينة الأولى مع عدد غير قليل من المثقفين، والإعلاميّين [4] وزاد على ذلك وقوفه مؤقف المؤرخ إزاء مشاهد وداع الراحلين. ففي اليوم الثامن « شارك سكان غرب بيروت المُحاصَر جميعُهم في توديع القائد المرَحَّل عن مدينتهم. الإناث والذكور، الأطفال و الصبيان والشيوخ. والنابهون منهم والمغمورون. واليساريون واليمينيون. والوسطيون. والآخرون الذين لا لون لهم من تلك الألوان. والذين لم يتمكنوا من الحضور تجمَّعوا حول أجهزة التلفزيون ليطلوا منها على الموكب. « [5].

توثيق تاريخي

على أنَّ الكاتب، إمْعانًا في تقريب هذه الرواية من التاريخ، أو لنقل من التوثيق التاريخي، يذُكُر لنا بالتفصيل ما فوجئ به هو، وغيره، من اغتيال سريع، وغير متوقع، للرئيس اللبناني الجديد (بشير الجميّل) وما تركه الحادثُ من تداعيات، وما خلفه التفجير من جُثث، ومن اشلاء في الموقع وما أثارهُ من

1.حياة حصار، ص 114

2.المصدر السابق، ص 127

3.المصدر السابق، ص 148

4.المصدر السابق،ص 135

5. المصدر السابق، ص ص148- 149

مخاوفَ لدى الفلسطينيين خاصة، كون أصابع الاتهام تتجه إليهم في هذه الحال قبل غيرهم [1] . ولم تفته الإشارة للوفود الصحفية الإسرائيلية التي تقاطرت على بيروت في تلك الأثناء بحماية الجيش الإسرائيلي، ومقاتلي حزب الكتائب[2]. ومن دلائل الصدق التاريخي في هذه الرواية تلك المشاهد التي تتبّع فيها الراوي نَهْبَ الجيش الإسرائيلي لمحتويات مركز الأبحاث في حملة عسكرية قادها ضباط إسرائيليون من رتبٍ عليا، أحضروا خمسًا وأربعين شاحنة، وعددا كبيرا من العمال، وقاموا بنهب المحتويات، ولم يتركوا حتى أوراق التواليت. ونشروا أخبارًا كاذبة زعموا فيها أنهم عثروا على كمياتٍ من الأسلحة، والمتفجِّرات، والخرائط العسكرية، والمعلومات الاستخبارية في المركز. وذلك كله من الأكاذيب التي استفزت الصحفية الأميركية جانيت [3] فتلقَّت تهديدًا من السفارة الأمريكية إنْ هي نشرت ما يعد تكذيبًا لأقوال الإسرائيليين.

مذبحة القرن

ونحو هذا الخبر ما نقرؤه في الرواية عن مذبحة القرن في مخيمي صبرا وشاتيلا[4] فعلى الرغم من حرْص الإسرائيلين، وعملائهم، على إخفاء الجريمة، فقد أتيح لها من يكشفُ عنها، وهو مراسل الإذاعة البريطانية المعروفة بالاسم B.B.C ذلك لأنه الصحفي الوحيد الذي عجزت إسرائيل عن ترحيله قبل ارتكاب المذبحة [5]. علاوة على هذه المُجْريات أشار الراوي لحلول شقيق الرئيس اللبناني مكان الرئيس الذي قضى. وهو يعني بذلك أمين الجميّل الذي جرى تنصيبهُ

1.حياة حصار، ص 162

2.حياة حصار، ص 168

3.المصدر السابق، ص 169

4.المصدر السابق، ص 170

5.المصدر السابق، ص 172

وريثا لأخيه. وعُنيَ الراوي أيضًا بالكشْف عن المُراسلات، والاتصالات بينه وبين القائد العام الذي يقيم في تونس. والاتفاق على إعادة المركز إلى سابق عهده، والبحث عن مكان آخر، والشروع في بناء مقرٍّ جديد محصَّن دون أدنى اعتبار للتكاليف مهما بلغت. وهو، مع ذلك، لا يُخفي أنَّ الإسرائيليين ظلوا يحاولون إبْعاد من تبقى من الفلسطينيين في بيروت، بدليل تلك الزيارة ليهود باراك، وما قيل عن زعمه فيها بأنَّ مركز الأبحاث، ومعهد الدراسات، وَكْرا إرهابيّين ومخرّبين. [1].

كلمة أخيرة

إزاء هذه التفاصيل التي توثّقُ ما جرى في بيروت في العام 1982 ما بين شهري يونيو- حزيران وسبتمبر – أيلول، من بدْء الحصار حتى التفجير الذي أوْدى بحياة الكثيرين من العاملين في مركز الأبحاث، وهو التفجير الذي نجا منه الراوي بالصدفة، إذ اضطر للتأخُّر في مكتبه بدلا من المغادرة في الساعة التي تفجرت فيها السيارة المركونة أمام مدخل المركز، والشيءُ نفسُه جرى للأستاذ عوني، الذي نجا هو الآخر بأعجوبة، مع أنَّ التفجير أسفر عن غير قليل من الضحايا بين قتلى، وجرحى، ومصابين، نقول إزاءَ هذه التفاصيل الدقيقة، لا يستطيع القارئ الدارس أن يُنكر ما في « حياة حصار « من تسجيل تاريخي، وتوثيق شبه فوتوغرافي للمُجْريات، علاوة على ما فيها من إشارات تتَّصلُ بسيرة الكاتب، وشخصيَّته، فهي، إذا حُسبتْ في الرواية، مزيجٌ متداخلٌ من التاريخ، والسيرة، كُتبا بطريقةٍ روائيَّة.

1.حياة حصار، ص 180

عربة قديمة بستائر لغسان زقطان

رواية أم سيرة

كثُرت في السنوات الأخيرة الروايات التي ينحو فيها مؤلفوها نحو السيرة الذاتية. فمن بين الكتاب الذين أسهموا في هذا رشاد أبو شاور في روايتيه الأخيرتين وداعا يا ذكرين، والحب وليالي البوم. ومحمود شقير في فرس العائلة. ويضيف بعضهم رايت رام الله، و ولدت هناك ولدت هنا، لمريد البرغوثي، وهما كتابان يرويان نتفا من سيرة الشاعر. وفيصل حوراني اتكأ هو الآخرعلى سيرته في رواية حياة حصار، وغسان زقطان- الذي عُرف شاعرا أولا، ثم روائيا برواياته: وصفُ الماضي، وسماء خفيفة، وحيث اختفى الطائر، وأخيرا عربة قديمة بستائر-يتكئ هو الآخر اتكاءً لافتا على السيرة.

والمؤلف، فيما نحسب، ونظن، لا يخفي ذلك، بدليل ذكره في النصوص التي يتألف منها الكتاب، وعددها 25 نصا أمه، وأباه، ووفاتهما في المهجر. والمكان الذي دُفنا فيه، والقرية التي أخرجا منها سنة النكبة 1948 وهي قرية زكريا التي قام الإسرائيلون بتغيير معالمها بصفاقة، وزادوا على ذلك أن منحوها اسما غير اسمها المعروف، فأصبحت كفار زخاريا. ولا ينكر أنه مقيم أصلا في الأردن، وأنه تنقّل بين دمشق وبيروت وتونس. وزار بلدانا عدة. ولا ينكر أنه قدِم إلى رام الله كغيره ممن عادوا بعد اتفاق أوسلو 1993 ولكنه يتذكر تلك الصورة وذلك الإعلان اللذين رآهما على حائط إحدى المدارس في جبل التاج بعمان قبل 30 عاما. يروي هذا في روايته التي نَحَلها لكاتبٍ مجهول يتحدث عنه مستخدمًا ضمير الغائب، كأنْ

يقول في مستهل روايته "كان الخانُ الأحمر قد أصبح وراءه الآن. انعطف يسارًا تاركا الطريق السريع ليجد نفسه في مواجهة الوادي.. " [1] .

أما السببُ الذي من أجله بدأ روايته بهذا الإعلان، فلأنه يريد أن يحدد غايته من سلوكه مسلك الطريق الذي يؤدي من أريحا إلى القدس، صعودًا باتجاه جبل القُرُنْطل، مرورًا بالوادي الذي ذُكر في الإعلان. وهو وادي القِلْط، الذي دارت فيه معركة حامية الوطيس بين الفدائيين، ووَحدة من الجيش الإسرائيلي تمكن فيها الفدائيون من تصفية عدد من الجنود على رأسهم ضابط كبير برتبة كولونيل. في العملية التي وقعت في 12/27/ 1968 قتل اثنان من الفدائيين، وأسر الباقون. فبطل الرواية يريد أن يقتفي أثر المشاركين في تلك العملية، والتعرف على الميدان الذي جرت فيه. والهدف، بطبيعة الحال، أن يوقظ في نفسه ما يأمله من ذكريات عن الوطن الذي أقصي عنه والداه فيمن أُقصي، فعاشَ بسبب ذلك في المنفى.

الشيء بالشيء يُذكرُ

على أنَّ حكاية وادي القِلْط هذه تذكره بحكاية أخرى قرأ عنها في أحد الكتب. وهي التي تؤكد مقتل عشرات الرهبان في دير من الأديرة يقع في جبل القرنطل، أما القتلة الذين سفكوا دم أولئك الرهبان فهم من الغزاة الفرس الذي غزوا المنطقة مثلما تقول إحدى الروايات التاريخية. واللافت أن المؤلف لا يقنعنا بوجود علاقة ما بين الواقعتين. كذلك لم يعُد الكاتب إلى الحكايتين قطعًا إلا في إشارة أخرى عابرة لوادي القِلْط في الصفحات الأخيرة، وهي إشارة لا تكفي لإقناع القارئ بوجود صلة ما بين مقتل الرهبان ومقتل الفدائيين، وما تبقى من مرويات العربة القديمة. وهكذا يبدو هذا الزائر، وقد شُغل بمتابعة ما يجري عند نقطة العبور التي يتعرض فيها الزائرون والعائدون إلى فلسطين لأصناف من الإهانات، وساعـات

1.زقطان، غسان، عربة قديمة بستائر، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2014، ص 9

من الاصطفاف والانتظار، ريثما يجتازون نقاط التفتيش التي يتكدَّس فيها مجندون إسرائيليون يحاولون أن يكونوا لطافا، مع أنهم يصوبون بنادقهم الـ 16 m نحو من يخاطبون أو يفتشون. ويلتقِطُ المؤلف حكاية الرجل العجوز الذي يصطفّ، والأب الذي يرفع ابنه يوسف عاليًا كي يصبح في مرمى نظر المجنَّدة القابعة خلف الحائط الزجاجي. أو هند التي تستفزها عبارة الجندي المتغطرس: منْ هون لو سمحتِ.

فهذه الحكاية، وعلى الرغم مما فيها من نسيج سرْدي ممتع، وعبارات رشيقة، لا يشكّ القارئ في أنْ لا صلة لها بما سبقت روايته عن الزائر الذي يقتفي آثار المقاتلين في وادي القِلْط. فالموقف تكرَّر في رائحة التمر حنة لرشاد أبو شاور، وتكرَّر في رأيت رام الله لمريد البرغوثي، على الرغم من أنّ أيا منهما لا يذكر، أو يشير لمعركة وادي القِلْط، أو مصرع عشرات الرهبان على أيدي الفرس.

الأم والحَيْرة

في الطريق إلى زكريا يقول الراوي " زكريا هو اسم قريته المحتلة منذ عام 1948 هناك وُلد والدهُ، ووالدته." [1] بيوت مهدمة. وسنجاب ضربته سيارة فبقيت جثته ملقاة على الطريق في عِظةٍ تحذِّر منْ يراه من مغَبّة التسلل للمكان. ويستعين بالصور لاستعادة الماضي [2]. وفي فصل آخر يستدعي ذكرى القدوم إلى غزة خريف 1994. ثم العبور من حاجز إيرتز إلى رام الله. وفي الطريق، ومع استعادة الماضي، وحديث السائق، يتذكر أن الوصول إلى قريته دونه الكثير من الصعوبات. فهي تتوارى خلف حائط من الحرْش، وعند المدخل ثمة مقهى تديره يهودية مهاجرة من المغرب الأقصى. في المقهى يكتشف كلٌ منهما أنه يعرف مراكش جيدًا. ويروي المؤلف كيف حارت أمّه في التعرف على البلدة، لأنّ سكة الحديد لم تعد موجودة.

1.زقطان، عربة قديمة بستائر، ص 25

2. المصدر السابق، ص 28

تبخَّرت الحكاية إذن. ولم تعد تستطيع التأكّد من أن هذا الذي تراه هو (زكريا) أم (عَزتوف) أم بلدةٌ ثالثةٌ أخرى. فالمعالم لم تعد كما كانت. فقدْ تغير كل شيءٍ. وفي الفصل الموالي يعود بنا الكاتب لهند التي تهزأ بقول الإسرائيلي لها: من هونْ لوْ سمحتِ.

فهي تحدّث الراوي عن موت خالتها زكية التي توفيت من 40 سنة. توفيت وحيدة. في الأثناء يقع بصر هند على صورة لأم الراوي. الصورة باهتة، وكانت قد التُقِطتْ لها عند مصوّر في بيت لحم. تقول له بعد تأمل: أنت لا تشبه أمك، بنبرة اتهام لا تخلو من تجريح، لكونه لا يشبه أمه [1]. ومع هذا يتضح أن الحكاية توحي باستمرار مسعاهُ ليلبي رغبة أمه في زيارة القرية التي فارقتها منذ نيف وأربعين عامًا. ودونَ هذه الزيارة ضرورةُ الحصول على تصاريح. وعلى الرغم من أنه اعتاد منذ قدومه تجنُّب هذه المعاملات كي لا يجد نفسه مرغما على الانحناء، فقد كانت رغبة أمه الشديدة بهذه الزيارة مدعاةً للرضوخ، وليجد نفسه أخيرًا داخل هذا النمط [2] . وفي (سعيد يسأل) عودةٌ لمشهد الانتظار في طوابير أمام بوابة التفتيش. والأمثلة الكثيرة المتكررة لقصص شبيهة بقصة الأم مع هذه الزيارة للقرية التي يتبدل اسمها بين النكبة والنكبة. وتتصل بهذه العقدة حكاية الرجل العجوز الذي لم يتعوّد عبور البوابة الإلكترونية للتفتيش.

حكاية عُرْس

في فصلٍ آخر، لا علاقة له قطعًا بما تقدم: "حكاية عرس" في أحد المخيمات انتهت بمأساة. فالمخيم الذي أقيم عام النكبة في موقع غير ملائم شهد حفل زفاف، وكان المدعوّون قد احتلوا مقاعدهم على بَسْطةٍ تحتها حفرة مما تتجمع فيه المياه العادمة، والقذرة، وعلى نحو غير متوقع، وفيما كان الشبان يدبكون بحماسة احتفالا

1.عربة قديمة بستائر، ص 41

2.المصدر السابق، ص 44

بالعريس، وابتهاجا بالراقصة دلال، انهار سقف الحفرة، وانقلب العرس إلى كارثة. هنا يجد القارئ مبرّرا عجيبًا مفتعلا لذكر ما ذُكر، فالصورةُ الخاصة بالراقصة دلال، التي استعادها خيال السارد، تُذكره بتلك التي رسمها إدوارد سعيد في سيرته الموسومة بعنوان "خارج المكان" للراقصة تحية كاريوكا في تألقها يوم زار مصر معلقا على ما شاهده بعبارة " ابتسامة ثابتة في عالم قُلَّبٍ". [1]

أشتات مبعثرة

وعلى هذا النحو المطّرد تبدو لنا " عربة قديمة بستائر " أشبه بكولاج فني يتعمّد المؤلف جمع أجزائه المبعثرة من حكايات الشعب الفلسطيني المنكوب. ولما كانت لمحمود درويش قصيدة "عن القطار الذي سقط عن المحطة" فلا بدَّ من أن تكون ثمة فِصلة في الكتاب الذي يشبه السيرة شيءٌ من هذا. وظهور" رفقة والقطار مع حارس المحطة في رواية الأم " عنوانٌ سيقودنا حتما لهذا التوقُّع. فالأم لمْ تتعرف على القرية لأنها لمْ ترَ سكة الحديد، وجاءت رفقة اليهودية القادمة من المغرب لتحيي في أذهاننا ذكريات المحطة، وذكريات القطار. تقول: " نعم، ولم نكن قد أصبحنا صديقتين بعد" [2]. وتتذكر قطع الحلوى التي قدمتها لابن الفلسطينية وابن اليهودية معًا، تعبيرًا عن الإخاء الإنساني الذي كان سائدًا على الرغم من اختلاف المذاهب، وتباين الأديان. فرفقة، في هذا الموقف، وهي ابنة العدوّ الآن، ليست كـ (ريتا) في قصائد محمود درويش. فخلف (ريتا) ثمة سماءٌ رماديّة عَكِرة، وشتاءٌ طويلٌ قارسٌ، بينما رفقة لم تكنْ عدوًّا، وهي تواصل انحدارها في الطريق نحو ما تبقى من عرَبات القطار، ولا تفتأ تلتصق بكتفيْ الأم التي وصلت قادمة من عمان[1].

1.عربة قديمة بستائر، ص 59

2.المصدر السابق، ص 64

3.المصدر السابق، ص 95

قطان وحبيبي

ومن إدوارد سعيد، ودرويش، إلى نعيم قطّان. وهو يهودي عراقي كتب سيرته الذاتية بعد مغادرته بغداد إلى كندا. في هذه السيرة يؤكد مرارًا بُطلان فكرة (أرض الميعاد). وأن موطنه الجديد أنقذه من شتاته، ومن هولوكسته، ومن الاستسلام الأعمى لميثولوجيا لم يعد يؤمن بها أحدٌ. [1] بخلاف السيرة التي اختتم بها إميل حبيبي حياته حين أوصى أن يُكتب على شاهدة قبره "باقٍ في حيفا" [2]. وفي فصل عن الشاعر الراحل محمد القيسي يقول السارد عن زيارته لبيت عائلته السابق في مخيم الجلزون ما يأتي: " فوجئ السيد القاطن في المنزل، هو وزوجته وأولادهما، بحضوري. الرجل بدا صامتا مصدومًا. بينما زوجته تبدو أكثر تماسكا. والأولاد كان خوفهم مشوبا بالفضول. كانوا جميعا يحدقون بالرجل الخمسيني ذي الشعر الطويل الأبيض، وحقيبة الكتف السوداء، الذي ظهر فجأة على عتبة البيت مثل تهديدٍ غامض" [3].

على أنّ من يحاولُ العثور على ما يُذكّره بوجود تواصل سردي ما بين فصل وآخر في الكتاب، أو يذكره بحدث مركزي يلقي بظلاله على بقية الحوادث المحكية فيه، فلا بد أن يفشل، ويخفق في العثور على ما يطمئنه بأن في هذا الكتاب" عربة قديمة بستائر" رواية، كغيرها من الروايات، مع أن المؤلف يبدي في كل فصل منها، بل في كل مشهد، قدرته على توظيف السرد القصصي توظيفا جيدًا. ها هو ذا يكتب على لسان السارد كيف زار المنزل الذي غادروه سابقا في (بيت جالا) في سرد كأنه انتُزع انتزاعا من رواية لا تخلو من إتقان: " لم يذهب عندما

1.عربة قديمة، ص 77

2.عربة قديمة، ص 80

3.عربة قديمة، ص 81

وصل إلى فلسطين في ذلك المساء صيف 1994 حيث الذاكرة تؤدي إلى المنزل الصغير ذي الطابقين في انحدار السفح في بيت جالا. هناك ولد. وعبر السنوات الأولى تلك لم يبق منه الآن سوى مشاهد مشوشة لركضٍ سعيدٍ تحت مطر غزير في كرْم الزيتون " [1] .

ما لا تشف عنه الصورة

في هذا الكتاب حكاية متكرّرة لا تخلو من مغزىً يُذكرنا بعملية وادي القلط، ومجزرة الرهبان. فبين فصلة وأخرى ثمة حديثٌ يروي فيه السارد شيئا عن الطُرق. فحكاية راشد الحدادين ترصد لنا الطريق من الكرك إلى الموقع الذي أنشأ فيه المذكور البلدة القديمة التي تعرف الآن باسم رام الله. ويرصُد بالأسلوب ذاته الطريق ما بين أريحا والقدس صعودا تارةً، وهبوطا تارةً، والطريق ما بين القدس والخليل مرورًا بمنعطفات وادي النار، تتخلَّلُ هذه الطرق كنائسُ وأديرة. وبصورة مفاجئة يعود بنا السارد لهنْد، التي كاد القارئ ينسى حضورها في الكتاب. ففي البيت الذي تقيم فيه يجري الحديثُ عن (علي) زوجها الذي انفصلت عنه، لأنه رفض القدوم لفلسطين بعد أوسلو. ويعود الحديث- مرة أخرى- لقدوم الأمّ التي لم تتعرف على مسقط رأسها(زكريا) بسبب اختفاء السكة. ويذكر أنها توفيت في آذار(مارس) دون أن يحضر الدفن لتأخره بسبب الإجراءات الطويلة على الجسور. لم يبق من الأم سوى تلك الصورة الباهتة التي تذكّره برأي هند في أنه لا يشبه أمه [2]. وترتبط بهذا الموقف – بالذات - حكاية أخرى هي المقابر. تروي له هند ما تتذكره عن مقبرة دُفن فيها 500 شخص ممن قُتلوا في غزو لبنان صيف 1982 على كلّ قبر من تلك القبور رقم القتيل، لا اسم، ولا ما يحزنون.

1.عربة قديمة، ص 88

2.المصدر السابق، ص 100

بقايا

أخيرا، وفي مقهى المغربية (رفقة) انتبه السارد لشيء لم يلاحظه من قبل، لا هو، ولا الأمّ، فالمقهى الذي تديرُهُ ما هو إلا بقايا عدَّة عربات لقطار جرى التصرّف بها، وتحويلها إلى مقهى. ولم يستطع أن يتفادى فكرة أنهم جميعا: المغربية، والنادل الفلسطيني، ومجموعة السياح الألمان، والجنديّيْن اللذيْن وصلا للتوّ ، وهو، يواصلون جلوسهم في ذكرياتِ أمه. التي لم يبق منها سوى تلك الصورة الباهتة التي التقطها لها مصوّر في بيت لحم قبل النكبة.

صفوةُ القول أنّ هذه السيرة، بما تنطوي عليه من محكياتٍ ذاتية، وأخرى بعيدة عن الذات، لا تؤلف رواية بالمعنى الاصطلاحي لهذا النوع الأدبي. فهي أقربُ ما تكون لمشروع مُربك، ولفيف متألق من حكايات مبعثرة.

أحمد حرب

والصعود إلى المئذنة

بعد حكاية عائد 1981 وإسماعيل 1987 والجانب الآخر من أرض المعاد1990 ورواية بقايا 1996 كتب أحمد حرب (1951- 2025) رواية تختلف عن رواياته المذكورة بتناولها أحداثا ووقائع مما جرى في فلسطين قبل العام 1967. وهي بعنوان الصعود إلى المئذنة2008 وقبيل الحديث عن هذه الرواية في هذا الفصل نود أن نشير بإيجاز لما امتازت به رواياته المذكورة.

ففي روايته إسماعيل نجد التنوع في الشخوص كبيرا. فمنهم المسلم الأصولي، ومنهم الشيوعي الماركسي، ومنهم القومي، ومنهم من هو عميل تستخدمه المخابرات الإسرائيلية (الشين بيت) ومنهم المزارع العادي الذي يضطره تعلقه بالأرض للعمل في مستوطنة أقامها المحتلون على أرضه المصادرة ليكون قريبا من الأرض. ومنهم إسماعيل الذي يثور على ذلك كله فيقتل المستوطن يعقوب، ويصفي العميل مصطفى، شاهرا سلاحه بيده، قائلا: لا حل إلا هذا.

وفيها يجد الباحث توجهها جديدا للآخر. مبتعدا عما يمكن وصفه بالصورة النمطية للإسرائيلي، تلك التي اعتدنا عليها في كتابات غسان كنفاني وقبله خليل بيدس. أما روايته الجانب الآخر من أرض المعاد، وهي تمثل الجزء الثاني من ثلاثية المؤلف، فتتناول الحقبة التي تتلو خروج إسماعيل من الضفة المحتلة إلى الأردن، واستقراره بعمان في مكتب تابع لفلسطين، محتفظا في الوقت نفسه، بصلاته القوية، وعلاقته المتينة بهادي الذي يمثل- للأسف - نموذج الانتهازي فقد انتهى به الأمر لترويج مفهوم للسلام هو الذي يطرحه الاحتلال، وهو استسلام بصورة مؤكدة.

وتمثل آرنونا كالضابط يوسي شخصية من أطرف ما جرى تناوله من شخوص إسرائيلية في الرواية الفلسطينية، فعدا عن أنها مهاجرة من اليمن، لديها الكثير من التقلب الذي تستند فيه لادعاءات بعضها قد يكون مقبولا، وبعضها- بلا ريب - يمثل امتدادا للتفكير الصهيوني الذي يغزو المهاجرين اليهود، سواء منهم الأوروبيين، أو العرب الذين قدموا من اليمن، أو العراق، أو المغرب.

وفي " بقايا " يتابع إشكالية الهوية، مثلما تتجلى في حكاية آرنونا التي تزعزعت ثقتها بهادي، ونجدها في نهاية الرواية ترجع لديانتها اليهودية بعد ارتدادها عن الإسلام لأنها أخفقت فيما كانت تسعى لتحقيقه، وترجوه.

وفي موازاة هذه الحبكة الهابطة، نجد أخرى أكثر هبوطا، وهي سعي أحد شخوص الرواية لإثبات حقه في ملكية الأرض التي صودرت، ومنع من التوجه إلى (الخروبة) التي تقع في وسط هذه الأرض. فهي البقية الباقية من آثار آبائه، وأجداده. ولا يخلو هذا الجزء من ثلاثية الكاتب من تشابك العلاقات بين الأنا، ممثلة بالفلسطيني، والآخر متمثلا بالإسرائيلي.

الصعود إلى المئذنة

تعود بنا روايته الصعود إلى المئذنة، كغيرها من رواياته، لتوثيق الوعي بتاريخ المشكلة الفلسطينية، ملقيا الضوء على بعض ما جرى في الماضي القريب. أو على ما يجري في الحاضر؛ تارة من خلال السرد الموضوعي المباشر، وتارة عبر نوع من السرد الذاتي، متكئا على الراوي الشاهد المتواري وراء ضمير المتكلم. فيسيرُ يحيى ابن خليل يقظان، من قرية العين قرب الخليل، هو الذي يروي اعترافاته دامجا حوادث قديمة تتزامن مع تاريخ ميلاده بأخرى أقلّ قدما، تتزامن مع قيام طيران العدو بالإغارة على بلدة السموع المجاورة لقرية السارد على الخطوط الأمامية جنوبي الخليل، وقد حدث هذا فجر الثالث عشر من تشرين الثاني(نوفمبر) من العام 1966.

ففي ذلك اليوم نفذ الشيخ يونس ما وعده، وهو أن يسمح له برفع الأذان نيابة عن المؤذن. تتعثر هذه المحاولة، وهي الأولى، بسبب الغارة، ولم يُسمع أذان، وأقيمت الصلاة وانتهت دون أن يسمع المصلون، والإمام، صوت المؤذن. حجة يسير التي حاول الاعتذار بها عن تقصيرة هي إحساسُه بأن قلبه قفز من صدره خوفا ورعبا عند سماعه صوت الطائرات المغيرة. لذا لم يمنحه الشيخ يونس فرصة أخرى لرفع الأذان.

يوميات الراوي

مع هذا يعود بنا الكاتب إلى ما قبل هذا الحدث، بادئا بيوميات الراوي يسير يقظان في الكتّاب، ثم في المدرسة، وتأثير الشيخ يونس الذي هيأه ليكون مفرطا في التعلق بأهداب الدين، خلافا لصديقه قنديل الذي طالما طرح على الشيخ أسئلة تستفزّه، وَتُخرجه عن أطواره، وعن وقاره. وتتخلل هذه الفِصْلة من الرواية تداعيات عن القطعة النقدية، وعن الحرص على تناول الطعام باليمنى لا باليسرى، لكي يكون من أصحاب اليمين. صحيح أن يسيرا مختلفٌ عن زميله قنديل، إلا أنه هو الآخر لحوح، ويكثر من الأسئلة، بيد أنّ إقناعهُ يسير، خلافا لصاحبه الذي لا يفتأ يجاهر بشكوكه متّهما الآخر بعدم السماع لصوت العقل.

ومن التداعيات التي تتصل بيوميات السارد، إلى تداعيات الشيخ يونس، وشاور، التي ابتعدت بنا من الحاضر إلى العام 48 ، والحديث عما جرى في بلدة الدوايمة من مذابح راح ضحيتها الكثير من الأبرياء، شيوخا، ونساءً، وأطفالا، ورجالا. فالشيخ يروي كيف شاهد جنودا إسرائيليين يقفزون من سياراتهم شاهرين أسلحتهم على المصلين في جامع الدراويش " أطلقوا النار عليهم بكثافة من جل الجهات، ولم يسمع بعد ذلك غير الأنين، وصرخات الألم، والاستغاثات التي تسبق الموت" [1]. لم ينج أحد سوى الشيخ يونس، وشاور، لأنهما كانا في طريقهما للجامع حين سمعا الأعيرة ففرا إلى قرية (العين) جريا على القدمين. أما أفراد عائلتيهما فقضوا

في مذبحة أخرى، في (طور الزاغة) وهو من أحياء الدوايمة التي اختبأ فيها السكان الهاربون.

مخفر الرهوة

في هذا الاسترجاع يتوغل الكاتب في الماضي، فيروي ما كان من أمر الشيخ يونس، فقد حلّ في قرية العين(لعلها الظاهرية) وتزوج فيها من إحدى قريباته، بعد المذبحة بأربعين يومًا. واستطرد ساردا ما وقع لشاور الذي فقد في المذبحة والديه وإخوته، وبقي وحيدا عازبا، عازفا عن الزواج، محوّلا مسكنه البائس لما يشبه زاوية صوفية، أو تكية، لذا يطلق عليه القرويون اسم السايح لشدة تعلقه بالحب الإلهي. وبعضهم يسميه المجذوب للسبب ذاته. ويسميه بعضهم اليسير للشبه الكبير بينه وبين صالح اليسير، وهو جندي من البلدة اختفت آثاره بعد تفجير الإسرائيليين مخفر الرهوة في 13 أيلول - سبتمبر 1956. وهذه الإشارة، تبعا لما هو شائع في المونولوج الداخلي القائم على التداعي، تُذكـّرُ الراوي بحكاية صالح اليسير، والمخفر. وهي حكاية طويلة تستغرق استعادتها من ص 39 – 43 وفيها تقتحم الحكاية شخصيات جديدة مثل البدوي أبو حسين، والمختار، وأبو صالح، وعبد الرحمن.

أبو مهاوش

ظن الجميع أن صالحا قضى نحبه في ذلك الهجوم، أو هكذا استنتجوا من العثور على قبعته عالقة في الأسلاك الشائكة التي تفصل المنطقة العربية الخاضعة للأردن وتلك الخاضعة للاحت،لال الإسرائيلي. وهي التي كانت توصف في حينه بالمنطقة الحرام. ولما كان التداعي يسمح، من حين لآخر، بالخروج من السرد الخاص بحادثة معينة لأخرى، فقد وجدناهُ يروي لنا ما كان من أمر (أبو مهاوش) الذي اضطر الكاتب بسببه للرجوع إلى البداية التي استهل بها روايته " أنا يسير يحيى ابن خليل

1.حرب، أحمد، الصعود إلى المئذنة، ط1، عمان: دار الشروق، 2008، ص 30

يقظان من العين .. " ثم يستأنف الحكاية متناولا ما كان يقع في العادة من مشكلات أمنية مع الفرسان المكلفين في الخطوط الإمامية بضبط الحدود، ومنع التهريب، والتسلل، أو الاقتراب من السياج الشائك، ومكافحة أيّ عمل مسلح مهما كان محدودًا. وفي هذا السياق تبدو حكاية (أبو مهاوش) مع بساطير العسكر، وإطلاقه النار على فرس من خيول الفرسان، وما أعقب ذلك من تجريم، وتغريم، فضلا عن الضرب والتعذيب، الذي ترك لديه وجعا ثابتا ودائما في إحدى ركبتيه، استدعى القيام بعملية لبتر الساق تجنبا لانتشار المرض في سائر جسده، فصلا جديدا في هذه الحكاية. وهي حكاية لا تعدو - في الواقع - كونها حلقة في دراما إنسانية أكثر تعقيدا وأكثر عنفا، إذ تتصل بها حكاية أخرى بطلتها (ريحانة) التي ظهرت عليها علامات الحَمْل مع كونها بكرًا غير متزوجة.

ريحانة

أما علاقة السارد يسير بهذه الحكاية، فقد جاءت من جهة أمه التي كانت دائما تكرّر النصائح لوالدة ريحانة، وتحثها على عدم السماح لها بالذهاب لأخيها في المعسكر. فقد تذكر هذا، وتذكر موقف اللامبالاة الذي التزمت به أم ريحانة ظنا منها أن أمه تقول ذلك غيرة منها وحسدًا. وأخيرا وقع المحذور، واضطرت ريحانة للزواج من نمر- ضابط المعسكر- مداراة للفضيحة، وبهذه الحكاية ترتبط مناكفات قنديل - أحد أبناء الجيل الناشئ - مع الشيخ يونس، مثلما ترتبط أيضا بحكاية صالح الذي اختفى أثره بعد تفجير مخفر الرهوة.

هنا يفجأنا المؤلف باسترجاع خارجي متسع بعض الاتساع، إذ يروي لنا فيه الراوي بعض ما وقع لصالح الذي اختفى. وقيل إنّ أباه عثر عليه في مضارب كبير النَوَر. فثمة مكان يختفي فيه عن الأنظار، ويُصغي للغناء، ويتمتع بمرأى الفتيات وهن يرقصن بأثوابهن المزركشة ذات الألوان الصارخة المتنافرة. ومثل هذه الحكاية تكشف عن تعلق صالح بالحب، وبأساطيره، وحكاياته الغرائبية التي يرويها كبيرُهم.

وهذا كله قد يبدو عديم الصلة بحكاية صعود المئذنة، لكنه يستدرك ذلك فيذكر على لسان الأب أن هذا السلوك من صالح هو الذي دفع بأبيه للزجّ به في الخدمة العسكرية، على الرغم من أن كثيرين حاولوا إقناعه بعدم صلاحيته للخدمة في الجيش. فكان يردُّ عليهم قائلا:

- الناس يعايرونني: صالح مثل النسوان!

فكان من أمره ما كان.

تواتر

وعلى نسق التواتر، يكرّر الكاتب ذكر حادثة المئذنة بذكر اليوم الذي أغار في طيران العدو على السموع، ودمر منها ما دمّر، وقتل من قتل، وسادت الاضطرابات البلاد طولا وعرضًا؛ تظاهرات .. خطابات.. شعارات.. حظر تجوال .. سقوط شهداء.. تُذكّرنا فعلا بالذي جرى عشية العدوان في حزيران 67. وقد اختصر المؤلف وقائع ما بين 13 تشرين الثاني من العام 1966 و13 أيلول من العام 1993 بجرة قلم. فمن هو الذي التقى بياسر عمرو- مرشح المعارضة للبرلمان الأردني - وأول وزير تعليم عالٍ في حكومة أوسلو، يسير يقظان، أم المؤلف؟ المرجح أن هذه الإشارة تؤكد ألا فرق بين يسير يقظان، والمؤلف.

رسالة صوتية

واللافت للنظر أن المؤلف، بلمساتٍ فنية بارعة، جمع بين حوادث متعددة، مستخدمًا المونولوج الداخلي استخداما يجمع السابق باللاحق، فنتقبل ذكره ياسر عمرو ها هنا بحكم أنه ذكره هناك. والدوامة تواصل الحركة باتجاه الماضي عائدًا بنا مرة أخرى لصالح والبدوي (ابو حسين) ومخفر الرهوة. لنكتشف ما هو عصيٌّ على التصديق. فقد سمع أبو حسين صوت صالح اليسير عبر إذاعة العدو، وهو يوجه رسالة صوتية إلى أهله مطمئنا، راجيًا من يسمعها أن يبلغها لأهله مع الشكر المسبق، مؤكدًا بالطبع أنه حيٌ يرزق في سجن عسقلان. ويرد المختار عليه قائلا

اذهب للصليب الأحمر وطالب بزيارته، والإفراج عنه. أما أبو حسين، فيرد مشيرًا لمساعي الملوك والرؤساء العرب جميعا من أجل إطلاق سراحه، وسراح من معه، ولا حاجة بهم للصليب الأحمر، أو لغيره. أي أن الإسرائيليين سوف يطلقونهم تأدبا، فهم في رأي الشيخ يونس، أجبن منْ في الأرض. وقد رآهم أيام الحرب يختبئون كالجرذان. وهذا الحوار الذي أجراه المؤلف، ونقله لنا بلسان الراوي من ديوان آل يقظان، لم يكن في الواقع إلا تمهيدًا غير مباشر لحرب حزيران 1967 فما إن انتهت السهرة، وعاد السامرون إلى منازلهم، حتى فوجئ السارد وغيره بالأناشيد الحماسية، والمارشات العسكرية، والبلاغات الحربية، تنطلق مدَوّيَة من الإذاعات في عمان، وفي القاهرة، وفي دمشق. وفي غمرة الحيرة بين الحقائق، والأكاذيب، يتضح أن الحرب لم تكن حربًا في الحقيقة بقدر ما كانت تمثيلية انتهت باستيلاء من يصفهم الشيخ يونس بالجرذان على البلاد، وينزح اللاجئون مرة أخرى.

صوت المؤلف

مَنْ يُعدْ النظر فيما قيل عن أبرز الحوادث في الرواية، وعلاقتها ببعض يدرك أن هذه الرواية تختلف عن روايات احمد حرب السابقة. فهي تقوم على السرد المكثف الذي يتضمن الكثير من المحذوف، والمضمر، فضلا عن تخطيها حاجز الزمن التسلسلي في غير موقع. معتمدا في ذلك على زكانة القارئ، ونفاذ بصيرته، في تكملة المشهد السردي. أما المنظور، فقد اعتمد بصفة مباشرة على السارد الشاهد الذي لا تعدو علاقته بما يرويه علاقة شاهد العيان. هذا على الرغم من أنه يبدو لنا ساردا مشاركا. فصعود المئذنة، والتقصير في رفع الأذان، هو الشيء الوحيد الذي قام به، لكنه - فيما تبقى - يقتصر دوره على دور الراوي الذي لا أثر له، ولا تأثير، في المتواليات المحكية، ولا في تفسيرها، أو ترتيب الحوادث فيها، أو تقويمها من حيث المهم والأكثر أهمية. ولكنه يحاول ذلك، خفية، عند الحديث عن اللقاء بوزير التعليم العالي ياسر عمرو، فهو في هذا الموقف يؤكد لنا أنه قناع يخفي وراءَهُ صوت المؤلف.

وهذه الرواية تختلف أيضا عن سائر رواياته بعدم التفاتها للآخر الذي شاع في هاتيك الروايات، ولا بالمكان، إلا في القليل النادر الذي يرسم إطارا لبعض الوقائع حسب. ورسمه للشخوص يتصف بالتسرع، والتكثيف، والاكتفاء بالإشارة العامة مستبعدًا الكثير الجمَّ من التفاصيل، فامتلاءُ ذاكرة الراوي بالكثير مما يعرفه المروي له من التفاصيل الصغيرة والكبيرة، صرف الكاتب عن التدقيق في الشخوص، فجاءت نمطية في الغالب. واللافت للنظر في هذه الرواية، مما يحسب للمؤلف، اعتماده أساليب سردية متعدِّدة في تشكيل الزمن؛ كالمراوحة بين الاسترجاع والاستباق، وبين التسريع والإبطاء، وبين الإطناب والتلخيص، واستخدام الفجوة، والتواتر. وذلك كلُّه مما يكسر الطابع النمطي للسرد، وفي ذلك ما فيه من الغنى الفني، والثراء الجمالي الذي يجعل من رواية بسيطة، كهذه، رواية تستحقّ القراءة[1].

1.انظر: خليل، إبراهيم، الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، ط1، عمان، داار الكرمل، 1990 ص 9- 24 وانظر كتابنا أقنعة الراوي، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2002 ص ص 107- 136 وعن بقايا انظر: أفق التحولات في الرواية العربية، ط1، دارة الفنون، 1999 ص ص 127- 140 وانظر ما كتبناه عن: الآخر في ثلاثية أحمد حرب، مؤتة للبحوث والدراسات، مج 14، ع 5، س 1999

أصل وفصل

رواية شبه تاريخية

في رواية أصل وفصل لسحر خليفة شيء من التاريخ، وشيء من الحاضر الموصول بالماضي، وهذه واحدة من مشكلات عدة لم يتوصل الكاتب الروائي العربي لفهمها الفهم الصحيح. فلكي تكتب رواية تاريخية بهذا المعنى، ينبغي لك أن تختار حقبة زمنية منقطعة عن الحاضر، وأن تحتوى شخصياتٍ تاريخيّة اسًما وجسما ودورًا، وأن تكون قد ذكرت في الحوادث التي دونها المؤرخون، لا من ابتكار الكاتب نفسه، وإن ساغ له أن يضيف لهاتيك الشخصيات شخصياتٍ أخرى من ابتكاره. وأن تقع المجريات في أمكنة معروفة تاريخيًا، لا أن تكون من تخيلات الكاتب، ولا ضير أن يضيف لتلك الأمكنة أماكن أخرى من باب التخييل كي لا تكون الرواية في هذه الحال صورة حرفية للتاريخ المدوَّن في كتب المؤرخين.

وعنوان رواية سحر هذه لا يوحي بأنها رواية تاريخية، كعنوان رواية نجيب محفوظ مثلا رادوبيس، أو كفاح طيبة، وغيرهما، أو كعنوان رواية أمين معلوف المشهورة ليون الأفريقي، أو أيّ رواية أخرى عُرفت في الأدب العالمي. وقد نتجاوز العنوان، ودلالاته على التاريخ من عدمه. بيد أن العنوان مجتزأ من كناية عامية يقال عن الشخص الذي لا قيمة له، لا في الحاضر، ولا في الماضي، أي أنه: وضيع الحسب والنسب: فلان لا أصل ولا فصل، أي أنه لا في العير ولا في النفير، فما هي الحكاية؟

تشير الكاتبة إلى أن الأهالي في نابلس- وهي مدينة محافظة جدًا - يؤمنون إيمانا قاطعا بأثر الأصل العشائري في منزلة الإنسان، وقيمته الاجتماعية، ونظرة الآخرين

له، فإن لم ينته اسمه باسم إحدى العائلات الكبيرة، المعروفة، ينظر إليه بصفته من أراذل القوم، حتى وإن كان أرخميدس بذاته، وبلحمه، وعظمه. وهذه قيمة من القيم التي تجاوزها الناس في هذا العصر، لكن لا بأس في أنْ تذكرنا بها الروائية على أساس أنها تقدم لنا رواية تاريخية شكلا ومحوى، فلا يجوز أن يكون الشكل تاريخيا والفحوى غير تاريخي.

فزكية، وهي إحدى شخصيات الرواية، تؤمن بهذه الفكرة، وبهذا المعيار في تحديد منزلة الإنسان، ويؤمنُ بهما أخوها، وأبناؤها، وحيد، وأمين، ووداد. وعندما يُتوفّى الزوج المنحدر من آل قحطان، تضطر بدافع الحاجة للعمل بماكينة الحياكة، لكنَّ أخاها يعود من حيفا، ويغدق عليها، وعلى الأبناء، بعد حرمان. ويصاهرها فيزوج ابنه رشاد من وداد. ويزوج وحيدًا- ابن زكية - من ابنته هو، رشا. وتطرد أيام الأسرة وحياتها اليومية ما بين حيفا ونابلس. وهذا بالطبع قبل الاحتلال عام 1948 ويستمرون على هذا المنوال إلى أن يتعرف وحيد على شيخ الجليل، وهو الاسم الحركي أو الفني، الذي تختاره المؤلفة لإمام الثوريين الشيخ عز الدين القسام. ينضم وحيد، خلافا لأخيه أمين، للثوار، ويضطر مرارًا للاختفاء عن أعين شرطة الانتداب، وقد تعرض للسجن في (حبس الدم) قبل أن يلاقي الشيخ القسام نحبه في حُرْش (العَمْرة) بيَعْبَد.

أما وداد، فقد تاهت بها السبل، وضاقت بها الحِيَل، لأن زوجها الطائش(رشاد) تزوج من أخرى، فتضطرها الحاجة لبيع ما لديها من مصاغ لتنشيء مع عليا صالونا للتجميل، بيد أن عليا فتح الله عليها فخُطِبت، ووئد المشروع في مهده. أما روزا الأمريكية، فتأتي من آخر العالم لتنشيءَ مدرسة زراعية باسم أبيها (خضوري) تضم طلابا عربًا ويهودًا. غير أن المشروع تعثر، فأنشأت بدلا منه كلية للتمريض، نظرا لمعارضة وايزمن، وبن غوريون، وأخيرًا جابوتنسكي. وتنتهي الرواية بمحاصرة كل من روزا، وليزا، والحاكم الإنجليزي، السير آرثر، في السرايا بالقدس، ومعهم أمين،

وواصف، والمخرجُ الأمريكي، وآخرون فيما يشبه الإعلان عن قيام الدولة العبرية، لتذهب تضحيات الفلسطينيين هباءً منثورا. لأنها في رأي السارد المؤرخ - ها هنا- انتفاضات عفوية، ساذجة، مرتجلة، تفتقر للتنظيم والوعي، والصدق. والذين قاموا بها فلاحون، يفتقرون إلى الأصل والفصل مثلما جاء على لسان زكية في سياق مختلف. ويتضح أن شقيقها، وإسحق شالوم، يعملان معا في تهريب السلاح، وتزويد المستوطنين به، فقد سمع وحيد من يقول له:" خالك مسكين، وأهبل، يتعامل مع اليهود، ويؤمّن لهم السلاح ليقتلوا به الثوار، وأن رشادًا، صهره، طائش، لا هو سكران، ولا صاحي[1]"

وهذا الكشف يرمز، وفي هذا الموقع بالذات، لما خفي على بعض القراء، وعلى الكاتبة، وعن العارفين بتاريخ فلسطين. وهو أن بعض الفلسطينيين أسهموا على رأي المؤلفة بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وتزويدهم بالسلاح. تقول الساردة التي هي قناع المؤلفة " ذهب إلى الميناء فوجد خاله يأمر، وينادي من يحمل صناديق البرتقال، وتنك الزيتون، .. إذا .. هنا يحدث كل هذا. صناديق سلاح، وتهريب مواد متفجرة وتغيير ملامح فلسطين "[2].

ولإضفاء بعض المصداقية على هذا الموقف، تركز الكاتبة على زيارة وحيد وزوجته لكيبوتس عَخْشاف، ففي الزيارة يوقنان أن اليهود مثقفون، ومزارعون مهرة، فخبرتهم في الزراعة، وغرس الزيتون، تفوق خبرة العربي والفلسطيني بمئات المرات. وهم بما لديهم من تقنية يستنبتون من الزيتون في عشر سنين ما يضارع الزيتون الروماني الذي تضرب جذوره في الأرض منذ ألفي سنة وأكثر. وهذا التركيز على الفوراق الثقافية بين العرب واليهود ينتهي وفق منظور المؤلفة لما يتساوق مع

1.خليفة، سحر، أصل وفصل، ط1، بيروت: دار الآداب، 2009 ،ص 173، وص 176

2.خليفة، سحر، أصل وفصل، ص179

المنظور الصهيوني الذي يجده القارئ في كتابات يائيل دايان، وغيرها. فعلاوة على أنهم أرقى، يتصرفون كالملائكة مع ضحاياهم الفلسطينيين، في حين أن العربي، أو الفلسطيني خاصة، بدائي لا يعرف الحضارة، ولا الحضارة تعرفه. فاليهودي الإسرائيلي طيب القلب، وهذه الطيبة تدفع برشا - زوجة وحيد، ابن المدينة الذي ليس لبّانا، ولا ابن لبّان، متأثرة بطيبة قلب سارة إلى خلع إحدى أساورها وتقديمها لها هدية، تقول على لسان الساردة: " فما كان منها إلا أن نزعت سوارا من أساورها، وألبسته لسارة دليل عرفان، وصداقة ، وبداية عهد جديد من التفاهم، والانسجام، مثلما قالت سارة : الناس للناس[1] ".

وفي الوقت الذي تصف الكاتبة فيه اليهود الإسرائيليين بالطيبة، والملائكية، يبرزون بخلاف ذلك، في موقع آخر. فجفيرت شالوم، التي تنحدر من أصل روسي، وبولندي، لا تخفي شعورها بالاستعلاء، على الفلسطيني والعربي، فعندما قامت بتقطيع كعكة الميلاد، وتوزيعها على الحضور، أنفت أن تقدم لوحيد وزوجته ما تقدمه للآخرين. مما أشعرهما بالخجل. وهذا شيءٌ يتكرَّر عندما يجري الحديث بين روزا والحاكم الإنجليزي عن مشروع المدرسة الزراعية بحضور وايزمن، وبن غوريون، فهما لا يجدان حرجا في تشبيههما العربَ بالدواب. وتتحول الشخصيات في هذه الرواية من موقف لآخر، تحولا سريعا، مفاجئا، دون توطئة من مقدمات أو حوافز للتغيير، فعلى سبيل المثال يتحول وحيد إلى ثائر في صفوف الشيخ القسام فجأة[2] دون سابق تمهيد بالحديث مثلا عن طبع ثوري لديه، أو تأثره بما يرى ويسمع.. إلخ.. فالإنسان لا يقبل على مثل هذا إقبالا سريعًا من غير تفكير وتردد. وإلا فهو متهوّر لا يصلح لمثل هذه المهمة، وهي السير على طريق الثورة.

1.خليفة، أصل وفصل، ص 213

2.المصدر السابق، ص 225

ويتحول أمين، الطالب في المدرسة الثانوية، إلى خبير في السياسة ذي تجربة عميقة، وطويلة، فور التقائه بالشيخ، فيخاطبه بكلام لا يصدر إلا عمن عركته السياسة عَرْكَ الرحى" أنت تحرّض البسطاء وتدفع بهم للانتحار، ماذا لديهم؟ سلاح عتيق لا يصلح لصيد العصافير. ووضع دولي متحيز .. وجو عربي ممزق.. لا يعبأ بهم. أنت يا سيدي الشيخ تجازف. من يرعاكم؟ حتى القدس لا أحد فيها يهتم بكم. لماذا التضحية بلا طائل؟ لماذا الموت بلا مقابل؟ وأخي هذا، لماذا تورطه؟ [1] مع التذكير بأن من يقول هذا الكلام ما يزال طالبا في المدرسة.

وليت المؤلفة تقتصر على هذا "المطبّ" وهو أقرب إلى الفن منه إلى أي شيء آخر. فهي تصرُّ، في موقع ثانٍ، على أن أتباع الشيخ القسام كانوا إما لصوصا، وإما مجرمين، أو قطّاع طرق.[2] وأن القسام سمح لهم بهذا، وامتدحهم، ولقّبَهُم بالأبطال، وبالمجاهدين. ولهذا سرعان ما انضم هؤلاء اللصوص إليه، فرحَّب بهم، واحتواهم. ومن هؤلاء الذي انضموا إليه (الزبيق) الذي اعتاد الانحراف من صغره[3] .

ويقول الراوي، في موقع آخر، واصفا أتباع الشيخ القسام وثواره :" تنظيم يضم اللصوص والمشرَّدين، وهذا ما لا يخجلون منه، لأنهم أصبحوا شرفاء، وأنقياء، بفضل الثورة والإيمان" [4] .

فعقيدة هؤلاء الثوار تساوي بين السرقة والجهاد. ومن غريب ما يلفت النظر، في هذه الرواية، حرصُ الكاتبة الشديد على تشويه تاريخ فلسطين، فالذين اعتادوا أن ينشدوا:

يا ظلام السجن خيِّمْ إننا نهوى الظلاما

1.أصل وفصل، ص 226

2.المصدر السابق، ص 232

3.المصدر السابق، ص ص 231- 233

4.المصدر السابق، ص 233

باتوا، في الرواية، لا يحترمون من يُسجن، فوالد محمود – ابن الجيران- غير راض عنه، ويخجل بسببه خجلا شديدًا لكونه سُجن غير مرة [1] "خريج سجون". فالكاتبة لا تفرق بين السجن في سبيل الوطن، وغيره من السجون التي تختص باللصوص والمجرمين. وفيما بعد، عندما تنضج شخصية أمين، ويصبح صحفيا، وكاتبًا، يُظهر من الوعي ما لا يتفق مع المدة الزمنية التي مرت عليه، وفق الرواية.

والواقع أن لدى المؤلفة مشكلة مع الزمن؛ فقد ذكرت أن وداد حامل في أول الحكاية، واستمرت كذلك حتى الفصول الأخيرة. كأن الحوادث لم تستغرق سوى بضعة شهور هي التي يتطلبها الجنين ليبلغ مستوى الولادة أي الأشهر التسعة. في حين أن الحوادث المحكية تطلبت سنوات. وهذا معروف، فثورة الشيخ القسام استغرقت بضع سنين(1936- 1939). ولم تذكر لنا المؤلفة ما إذا رزقت مولودا أم مولودة. ويتضح هذا في الحديث الذي دار بين وداد وأمها؛ فقد عاتبتها لأنها زوجتها من رشاد، فقالت لها: ولكنك وافقتِ. فترد الفتاة قائلة: كنت صغيرة.

مع أن الفرق الزمني بين هذا الحوار وزمن الزواج لا يتعدى بضعة أشهر. فهل كبرت فيها كثيرًا. ويبدو الخلط في الأزمنة كبيرا. وهذا مأزق من يحاول كتابة الرواية التاريخية، أو شبه التاريخية، فهو قد يكون ملتزما بالتاريخ، متحررا منه في الوقت ذاته. ومن دلالات التحرر من التاريخ ذكرها الخبير الزراعي الصهيوني الحنون على الفلسطينيين (كالفارسكي) الذي قدم من بولندا مكلفا بشراء الأراضي لتوطين المهاجرين اليهود، تصفه المؤلفة بالطيبة، لشعوره في الوقت الذي يُخلي فيه الأراضي من الفلاحين بالقوة، بشيء من تأنيب ضمير – يا حرام!- لأنهم فقراء، ومساكين، ولهم أرواح ومشاعر، أليسوا بشرا؟ هكذا يتساءل. ومع هذا يتحمَّل ذلك كله في سبيل إسكان الإخوة القادمين من المهجر.[2]

1.أصل وفصل، 235

2.المصدر السابق، ص 372

ولا شك في أن الكاتبة تتوقع أن يقول القارئ، وقد أشادت بهذا المستوطن: كثَّر الله خيره! فهو يقر بأن الفلاحين الفلسطينيين بشر. وهو على الأقل أفضل من سيء الذكر بن غوريون، ومن وايزمن، فهو مستوطن ملائكي، فيما الآخران مستوطنان غير ملائكيين.

صفوة القول، وزبدة الحديث، هي أن هذه الرواية ما كانت لتكتب بهذه الطريقة لو أن المؤلفة، التي سبق لها أن أصدرت عددا من الروايات، قرأت القليل من تاريخ فلسطين الحديث، الحقيقي، وليس الرسمي الذي كتبه منافقون لم يبخلوا على أنظمة العار بالمدائح، ولم تلتزم بتقصي ما جرى في الحقبة التي تدور فيها رحى الحوادث المروية، والمتتاليات المحكية. وذلك ما فرض على التاريخ تفسيرا قسريا بعيدا عن الدقة. فإضراب الفلسطينيين الذي استمر 6 أشهر تعده خطأً. وهذا هو رأي الانتداب، وأنظمة العار في حينه. وتعُدُّ ثورة القسام أصل النكبة، وفصلها. تقول على لسان الساردة:" أشعل الفتيل في غياب التنظيم في الشارع. وخطب القادة. ووجهاء القدس، وغياب ستة أحزاب، ومشايخ". [1]

فهذه في رأيها أسباب المأساة: الإضراب، ثورة القسام، تغيب الأحزاب، خطب القادة السياسيين، المشايخ . وهو- أي القسام - من الغفلة، والسذاجة، بحيث يعتقد – فيما يرويه السارد متهكما " أن ثورته تلك ما إن يشعل الفتيل، حتى تمتد إلى السودان والمغرب. [2] ولا يفتأ الراوي يعلل هذا الإخفاق من منظوره، ومنظور مؤلفة الرواية، لأن الثورة لم تكن للأنقياء فحسب، بل للأشقياء، وللمجرمين فيها نصيب.[3]

إلى جانب هذا المنزلق، ثمة مزالق اخرى؛ من بينها أن الكاتبة ليست على دراية

1.أصل وفصل، ص384

2.المصدر السابق، ص 385

3.المصدر السابق، ص 395

كافية بالمكان الذي تدور فيه الحوادث. مما أوقعها في بعض الأخطاء. منها أن القسام وثواره خرجوا من حيفا، باتجاه يعبد، وفي الطريق يقترح الزيبق الاستراحة في مغارة مطلة على عين جالود، وفي الصباح حين أفاقوا، وانطلقوا، وجدوا أنفسهم في حرش يعبد. والمسافة بين المكانين كبيرة جدا تقرب من الخمسين كيلومترا إنْ لم تزد. فعين جالود تقع في وسط المسافة بين بيسان وقضاء جنين. أما يعبد فتقع على الطريق التي تصل بين عرابة ونابلس.

علاوة على أن الشيخ استشهد في غابة العَمْرَة على مسافة 6 كيلو مترا من يعبد، باتجاه أم الفحم. وقد واصل الشيخ القتال والنضال لسنوات قبل أن تنتهي ثورته هذه النهاية. فكان قد أعلن ثورته تلك بحيفا سنة 1929 في جامع الاستقلال، واستشهد في تشرين الثاني – نوفمبر سنة 1935 وثورته تلك كانت مقدمة لثورة أخرى تعرف بثورة الـ 36 ومعظم قادتها من القساميّين. وأورد إحسان عباس في غربة الراعي[1] رواية شاهد عيان عن هذا الرجل الجليل، لتأتي الكاتبة فترسم له هذه الصورة المنفرة، لا لشيء إلا لأن ثورته عمادها الفلاحون، وهم في رأي زكية لا أصل لهم، ولا فصل.

علاوة على ما سبق، تتناول المؤلفة حوادث من التاريخ الذي ما يزال بعض من صنعوه، وعاشوه، أحياءً يرزقون. وهم لا يستطيعون التخلي عن الصورة الحقيقية الراسخة في الذاكرة لصالح المحكيات السردية المتخيلة، ولذا من الطبيعي أن يختلف رأي القارئ، والدارس، مع الكاتبة في تفسيرها القسْري الذي فرضته على الأحداث في شيءٍ غير قليل من التعسُّف. مما يذكرنا بالمسلسلات التي قام بعضهم بكتابتها عن شخصيات لم تمض على رحيلهم سنوات: كنزار قباني، ومحمود درويش، والسياب. فالاعتراض على هذه المسلسلات يشبه الاعتراض على هذه الرواية.

2.عباس، إحسان، غربة الراعي، ط1، عمان: دار الشروق، 1996 ص80-81

خاتمة الكتاب

يتضح من هذه القراءة في عدد من الروايات أن الكاتب الفلسطيني يهتم بالنكبة اهتماما أكبر من اهتمامه بأي موضوع آخر. فلا مكان ولا موضع في الرواية لحكايات الغرام والحب والأسفار والصراع على المال وما شابه من مغامرات تكثر في روايات عالمية وعربية على حد سواء. فهذا هو الموضوع الذي طغى على جل الروايات التي ذكرناها بما فيها تلك التي غلب عليها موضوع الذات والسيرة. فعبر السيرة تنفتح الرواية على أفق واسع: تتخلله المقاومة وإشكالية الهوية والحنين إلى المدن والقرى التي هجر منها الفلسطينيون قسرا.

وقد تناولت بعضها مآلات المقاومة والعمل الفدائي في بيروت ودمشق وتونس وفي غزة والانتفاضات المتعاقبة سواء تلك التي اندلعت عام 1987 أو تلك التي تعرف بانتفاضة الأقصى، والعمليات الفدائية المشهورة. وبعضها يسلط الضوء على ما شهدته وتشهده الأراضي المحتلة في ظل سلطة أوسلو من مظاهر التراجع؛ أبرزها التنسيق الأمني، والفساد الإداري، والمالي. وتحول المقاوم السابق إلى منتفع أو انتهازي وصولي يثري على حساب الطبقة المسحوقة من الشعب، فضلا عن مظاهر شاذة في المدن وتشجيع الشباب على الانفصال عن عاداتهم الحميدة، وتقاليدهم العربية الأصيلة، وتشجيعهم على التكلم بلغة دخيلة على المجتمع الفلسطيني، والإقامة في المقاهي والبارات، واستبدالها بالمكتبات ودور العبادة. علاوة على تشويه البيئة بالمباني العشوائية متعددة الطوابق التي لا غاية من الارتفاع فيها ولا هدف سوى التنافس على الاستغلال لصالح الجشعين ممن كانوا يحسبون على المقاومة.

ومن الروايات ما يلفت النظر بصفة جريئة للآخر الإسرائيلي، كرواية بقايا لأحمد حرب، وما قبلها. ويسلط الضوء على البون الثقافي والحضاري والإنساني بين نقيضين أحدهما مستوطن مستعمِر، والآخر هو صاحب الأرض والبلد الذي يجري احتلاله واستعماره. ولم يفُت بعض الروائيين تسليط الضوء على بعض ما جرى في الضفة الغربية قبيل النكسة، وهذا ما نجده بوضوح في رواية أحمد حرب الصعود إلى المئذنة.

وعلى المستوى الفني تعاني الروايات التي دُرست من هشاشة في البناء، واضطراب في الشكل، فبعضها لا يختلف عن سيرة المؤلف إلا قليلا مثلما هي الحال في روايتي رشاد أبو شاور ورواية غسان زقطان عربة قديمة بستائر.. وبعضها يتخلى عن قواعد السرد الروائي، كمجانين بيت لحم، أو يعجُّ بالمبالغات، وبالأخطاء التاريخية. وبعضها ينحو منحى الفيلم الوثائقي التسجيلي معرضًا عما يستوجبه السرد الروائي من ضرورة التخييل واتساق المتواليات السردية على مبدأ العلة والمعلول، أو السبب والنتيجة. ولا تخلو الرواية في مثل هذه الحال من ثغرات كالحشو، والمفاجأة التي لا تنسجم مع الاحتمالات الممكنة، ولا مع الضرورة التي يتطلبها الفن. والإسراف في ذكر الأمكنة ،وأسماء البلدات، والقرى، وإقحام المناقشات التاريخية حول بعض الإشكالات كالتحقق من هوية مريم المجدلية في " قناع بلون السماء".

وصفوة القول هي: إن الرواية الفلسطينية، على الرغم من مرور أكثر من مائة عام على صدور الوارث لخليل بيدس 1920 ما تزال تبحث، وتتلمس طريقا لها تتخلص فيها من الهشاشة اللصيقة بالكثير الجمّ من الروايات العربية.

للمؤلف

في القصة والرواية الفلسطينية، ط1، عمان، دار ابن رشد ، 1984
الرواية في الأردن في ربع قرن 1968- 1993، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1994
القصة القصيرة في الأردن وبحوث أخرى، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1994
فخري قعوار دراسة في فنه القصصي، ط1، عمان، دار الكرمل، 1995 ط2، دار الخليج للنشر والتوزيع، 2024
أقنعة الراوي، ط1، عمان، وزارة الثقافة، 2002
تيسير سبول من الشعر إلى الرواية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005
في الرواية النسوية العربية، ط1، عمان: دار ورد الأردنية للنشر، 2007
بنية النص الروائي، ط1، عمان: عمادة البحث العلمي – الجامعة الأردنية، 2008 ط2، بيروت: الدار العربية للعلوم(ناشرون) 2010 ، ط3، عمان: دار الخليج، 2024
من الاحتمال إلى الضرورة، ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2008
في السرد والسرد النسوي،ط1، عمان، وزارة الثقافة، 2008
شعرية القصة القصيرة وحوار الأجناس،ط1،عمان:وزارة الثقافة،2010
تأملات في السرد العربي، ط1،عمان: فضاءات للنشر والتوزيع،2010
الرواية. التاريخ. السيرة، ط1، عمان: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، 2012

أساسيات الرواية، ط1، عمان: فضاءات للنشر والتوزيع، 2015
بلاغة الرواية ومسارات القراءة،ط1، عمان: دار فضاءات ، 2015
مراوغة السرد وتحولات المعنى، ط1، عمان: دار الآن(ناشرون وموزعون) 2016
جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش ،ط1، عمان: دار الآن(ناشرون) 2017
محمود الريماوي من القصة إلى الرواية، ط1، عمان، فضاءات للنشر والتوزيع، 2018
الذاكرة والمتخيل السردي، ط1، عمان: أمواج للطباعة والنشر ،2019
بين الرواية والسيرة، ط1، عمان: أمواج للطباعة والنشر والتوزيع،2020
السرد ومظاهره في القصة القصيرة العربية، ط1، عمان: دار الخليج للطباعة والنشر ، 2021
مشكلة البنية في الرواية العربية المعاصرة، ط1، عمان، دار الخليج، 2022
الرواية الكويتية بين جيلين، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
بهاء طاهر وآخرون، ط1، عمان: دار الخليج للطباعة والنشر، 2023
رشاد أبو شاور وآثاره في القصة والرواية، ط1، عمان: دار الخليج للطباعة والنشر، والتوزيع، 2024
في الرواية الأردنية الجادة، ط1، عمان، دار الخليج، 2025.
روايات وسير تحت الضوء، ط1، عمان: دار الخليج للدراسات والنشر ، 2026
مآثر الأعلام من فلسطين أرض السلام، ط1، عمان: دار الخليج 2026
مآثر الأقلام من الأردن أرض الوئام، ط1، عمان: دار الخليج، .2026

I B R H I M   K H A L I L

هذا الكتاب

الرواية الفلسطينية إلى أين؟

تعاني الروايات التي دُرست في هذا الكتاب من هشاشة البناء، واضطراب الحبكة، فبعضها لا يختلف عن سيرة المؤلف إلا قليلا مثلما هي الحال في روايتي وداعا يا ذكرين، ورواية عربة قديمة بستائر.. ورواية حياة حصار. وبعضها يتخلى عن قواعد السرد الروائي، كمجانين بيت لحم، أو يعجُّ بالمبالغات، وبالأخطاء التاريخية، كرواية أصل وفصل. وبعضها ينحو منحى الفيلم الوثائقي التسجيلي، معرضًا عما يستوجبه السرد الروائي من ضرورة التخييل، واتساق المتواليات السردية على مبدأ العلة، والمعلول، أو السبب والنتيجة، كروايتي رام الله الشقراء، وحمامة كولمبيا. ولا تخلو الرواية في مثل هذه الحال من ثغرات كالحشو، والمفاجأة التي لا تنسجم مع الاحتمالات الممكنة، ولا مع الضرورة التي يتطلبها الفن. والإسراف في ذكر الأمكنة، وأسماء البلدات، والقرى، وإقحام المناقشات التاريخية حول بعض الإشكالات كالتحقق من هوية مريم المجدلية في " قناع بلون السماء" وتجنب ذكر المكان في رواياتٍ أخَر كرواية امرأة خارج الزمن.

وصفوة القول هي: إن الرواية الفلسطينية، على الرغم من مرور أكثر من مائة عام على صدور رواية الوارث لخليل بيدس(1920) ما تزال تبحث، وتتلمس طريقا لها تتخَّلص فيها من الهشاشة اللصيقة بالكثير الجمّ من الروايات العربية.

من الخاتمة

● لوحة الغلاف للفنانة الفلسطينية منال ذيب

دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمّـــــان، العبدلي تلفاكس: 35 98 935 77 00962

darakhalij@gmail.com darakhalij1998 daralkhalij

تتوفر أصداراتنا على: Google play

9 789923 953617

Designed By S. Alyousef